الضاحك الباكي

فيكتور هيغو



المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت

قصص الملايين

الضاحك الباكي

الطبعة الثالثة

١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م

ڤيكتور هيغو

الضاحك الباكي

المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت

قصص الملايين

هذا مسلسل روائي نصدره تباعا ، وقد اخترنا له اجمل الروايات واغناها في الحوادث والمفاجآت والمغامرات .

اخترنا « قصص الملايين » من بين أمهات القصص ، التي الفها رواد مشهورون عاشوا وكتبوا للفن ، وماتوا ايضا في سبيل الفن .

فالقصة حياة ، والصدفة لها المقام الاول في هذه الحياة ، لانها تحمل في طياتها المفاجآت العجيبة والاحداث الغريبة .

أجل ، القصة حياة كاملة تلعب فيها الصدفة الدور الاول ، لان المخاطرة ، والمجازفة ، والحب ، والبغض ، والقتل ، وسفك الدماء ، كل هذه الامور المعبرة في جوهرها عن نزوات جامحة ، هي ولا غرو وليدة الصدف الطارئة التي لم يحسب لها أحد حسابا .

لهذا تبوات القصة القمة لانها الصدفة المجسمة لعنقود من الصدف .

ولهذا غدت القصة من لزوميات الانسان في حياته ، كالطعام والشراب ، وكالنور والهواء .

الناشر

الغـــلام

ظلام دامس ، وشاطيء مهجــور ، وسفينة صغيرة لا تملك من أمرها الرجاء أو الرسو •

وسبعة أشخاص ، وغلام مذعور ، وليل بهيم احتجبت مصابيحه وخليج بورتلاند الانكليزي يشهد منظرا فريدا • فالناس نيام ، والرياح تزأر ، والارواح الشاردة ، والرجال ينقلون الاطعمة والماء •

أحس الغلام بالرهبة ، وجعل يصدع بالامــر وهــو يختلس النظرات الوجلة الــى الاشخاص السبعــة الذيــن انهمكوا في العمل •

سبعة اشخاص جمعت بينهم الجريمة، آلوا ان يسوموا الغلام ألوانا من الخسف ! كانوا يزجرونه ، ويزمجرون ، ثم يطلقون أيديهم الى رأسه بلطمة قاسية •

كان ابن العاشرة يئن ، فلا ينفطر لأنينه كبد ، ولا يرق لتوجعه فؤاد ، بالرغم من وجود امرأتين مع الجماعة المجهولة

الغاية والمقصد .

ولما انتهوا من حمل اثقالهم الى السفينـــة ، وصعدت المرأتان لآخر مرة ، وهم الغلام باللحاق بهما ، رفعه رجل من الرجال بخشونة ، فألقاه أرضا ! وما هي الا لحظة حتى رفع اللوح الخشبي الذي كان يصل المركب باليابسة .

وظل الغلام يحملق في الظلام فاغر الفم ، لا يكاد يفهم شيئا مما جرى .

وحاول ان يتكلم .. حاول ان يعبر عن شعوره ، بيد ان لسانه ألجم في فمه ، فما نطق.. انما وجف قلبه ووجب، وشعر بالدوار .. والبوار !

وشخص الى قلوع السفينة المبتعدة ! انه وحيد ـ لم يعرف احدا سواهم ، مع انه لم يشعر الا بالنفور منهم ! فما العمل ؟ ليل مدلهم .. زمهرير .. وحـــدة مريعة .. جوع يضور !

« اواه ... » ندت الصرخة من صدره ! وكأنه رجل يتضور من الشقاء ويتحرق على الرمضاء !

ولم ير بدا مما ليس منه بـــد .. وأدار وجهه ومشى ! وجعل يرقى الصخور ويتسلق المرتفعات .. وهو كلما قطع شوطا ، خيل اليه ان الارض تنبع من تحتـــه ! وتعثـــر ... فسقط ونهض ! واشرق بدمعه ، ورقأ العبرات الهامية .

وترامت الارض أمامه فجأة ، والتفت خلفه فقيد لحظه

قبس ضئيل يتراقص من بعيد ــ انه ضوء المركب ــ ورفع يديه الى السماء وهتف بصوت يقطع نياط القلوب : « أواه ... »

وزأرت العاصفة ، فاستأنف السرى ، ومشى .. ومشى ..

***

كانت اوروبا في القرن السابع عشر محصورة في اطار أغبر من الهمجية ، وكانت الاحداث تملأ النفوس هلعا ؛ وقد اصطبغت انكلترا بلون الدم ، فسادتها الجريمة ، وساهمت السلطة في البلبلة ، فاتخذت من النكلة وسيلة لغاية ، هي غاية الانتقام والاستعباد !

وعرت ذوي القلوب هزة من الحزن ، لما شاع من قيام العصابات بخطف الاطفال لقاء مبلغ من المال ، وتشويه وجوههم، وتغيير أمائرهم بما يخضعون هذه التقاطيع لها من المسخ بالمشرط ، ومن تمزيق أطراف العيون والافواه ، ومن جدع الانوف والآذان !

كانوا يمثلون بالاطفال ، حتى اذا ترعرعوا أمسوا كالمهرجين ، يضحكون الناس بمنظرهم ، ويبكون هم !

وقد برع كثيرون في عملية التشويه ، ولجأوا الى ضروب شيطانية .

في عهد الملك جيمس الثاني ، نالت هـــذه الطغمـة الشريرة الحظوة ، فامتدت مشارطهم الى وجوه طاهـرة لا ذنب لها الا نفور الملك وأعوانه من آبائهم..وقد طالما عبثت هذه المشارط في وجوه اطفال طمع زبانية البلاط فـي ثروة آبائهم ، فعملوا على استئصال الوارث الوحيد !

وكان الطفل متى نالت السكين وطرها مـن وجهـه ، تتغير معالم هذا الوجه ! والعجيب في الامر ان الملك كـان يعضدهم ويمنع ان يسيء اليهم احد . وكان هؤلاء الاطفال يفقدون الذاكرة مع فقدان المظهر .. فكيف ؟ ولم ؟

ما اكثر ما كتب اصحاب الضمائر وقتذاك .. ما أكثر ما كتبوا في ذم هذا العمل الرهيب ! ولكن .. ما اكثر مـا فقد شجاع رأسه لانه تجاسر فجهر بالحقيقة !

كانت وحدة العمل تشج بينهم رغـم تنوع أجناسهم ، وتحث الواحد منهم على مظاهرة زميله ، ولو ترتب على ذلك تعرضه للمعاطب !

فلما سقط جيمس الثاني وخلفه وليم الثالث في عـام ١٦٨٨ ، شهرها حربا عوانا على تجـار الرقيـق هؤلاء .. وطاردهم ونكل بهم ، فتفرقوا شذر مـذر ، وهاموا عـلى وجوههم .

وكانت الشرذمة التي تركت الغلام وركبت متن البحر ، احدى هذه العصابات ، فلما ضاقت في وجهها سبل العيش ،

وحاق بأفرادها الخطر ، عمدت الى الفرار مخلفة وراءها الفتى المسكين الذي شاهدناه يصارع الليل ، ويقتحم الظلمة ، ويخبط على غير هدى في تيه من الصخر والرمل والبرد !

٢

المسافــرون

ألقوا خيرهم ، وأبقوا شرهم •• وها هم أولاء يركبون البحر طلبا للنجاة !

خمسة رجال وامرأتان ، والربان وملاحان •

قطعت السفينة في المــاء فرسخا ، فاطمــأن القــوم ، وتراءى لهم ان السلامة باتت مضمونة •• أما رئيسهم المديد القامة ، فقد دأب على التنقل واصدار الاوامر •• ولكــن شيطانهم تخلى عنهم ، والله لم يشأ ، عــــلا شأنــه ــ ان يرحمهم ، فقد هبت عاصفة هوجــاء فاقتلعت الصاريـــة الكبيرة •

ومع ذلك ، فما روعتهم المفاجأة ، وكانت حالتهم أشبه بحالة مشف استنشأ النفس الاخيرة براحة ، فأيقن ان الوعكة زالت !

واحد منهم وخط الشيب رأسه اختلف رأيه ــ واحد وخط الشيب رأسه واستسلم للتفكير ــ كان هــذا الكهل

مطرقا يتأمل ، وكان يشعر بالندم ، ويرمق الربان بنظرة متفحصة .. كانت عيناه تقولان : « تلك هي المشيئة ، وسنتحمل عاقبة جرائرنا ... لقد بدأنا الشر ، وللشر بقية لا تعود الا مع بادئه ! »

كان الاثنان ـ الشيخ والربان ـ في شغل عن الجميع بأفكارهما . فالاول كان يرفع رأسه الى الافق المكفهر ، والثاني يطيل التحديق الى اللجة المزبدة .. وكأنهما يحاولان ان يستشفا الغيب !

ودنا رئيس العصابة من الربان وابتدره قائلا :

« أي الرجال هذا ؟ » .

« انه أطولهم باعا » .

« وما هي لغته ؟ » .

« يلم بلغات الناس كافة ؟ » .

« ماذا يعلم من شؤون الدنيا ؟ » .

« كل شأن .. يعرف ما يجهله الناس » .

« ما اسمه ؟ » .

« لا اسم له ، ويكنى بالمجنون » .

« وأنت ، أتدعوه كذلك ؟ » .

« أنا ؟ كلا .. بل اسميه الحكيم » .

« ما هي مكانته بينكم ؟ » .

« المرشد والملهم والعليم » .

« أتدري أني أرى فيه لغزا ؟ » .

« أتدري أنه مرآة صافية ؟ »

وشقت السفينة طريقها في اليم ، وعاركت الامواج . واستسلمت لها مكرهة ، فتقاذفتها كأنها كرة ، وعبثت بها ، فاهتزت .. وارتعشت القلوب . وتكاثف الظلام ، وهدرت المياه ، وزمجر الاعصار ، وناح ملاك ، وقهقه شيطان !

أما المجنون ـ أو الحكيم ـ فجمد في مكانه لا يحول عينيه عن جهة الشمال . ودنا الربان منه ، وجعل يتأمل فيه، ولا يدري ، أيحترمـه أم يزدريـه ؟ أيتجاهلـه أم يعترف بوجوده ؟

وقال أخيرا : « لي كلمة معك يا سيدي » .

قال : « تكلم .. فكلي آذان صاغية » .

« ما دمت كذلك ، فعندي سؤال » .

« سل ما بدا لك » .

« أفي حوزتك جهاز الارتفاع والانخفاض ؟ »

« كـلا .. » .

« وكيف يتسنى لك معرفة مركزك في البحر ؟ » .

« لنا نحن الاسبان خبرة ودراية في الملاحة » .

« على ان الليل بهيم ، فكن متحذرا محترسا » .

« ليطمئن بالك ، فلست من الجهلة » .

« وكم ميلا في الساعة تسري السفينة ؟ » .

« خمسة أميـــال » •

« الى أين تقصد بها ؟ »

« الى مكان يقع بين ليولار وسان سبستيان » •

« كن متيقظا ، فالهواء المتجه في تيـــار يسبب تجاوبا في البحر ، ومتى وجد التيار المائي استفحل الخطر »

« أصبت . فأخشى ما أخشاه هو التيار المائي •• فتبا للبحـــر ! » •

« لا تقذع في البحر ، فهو يسمع ويعـــي •• وهـــو غضوب حقود ! » •

« أتؤمن بالخرافات ؟ »

« قد يكون ذلك ، وما عليك الآن الا أن تصرف فـــي المراقبة جهدك » •

« لن تغمض لي عين •• واننـــا الآن مبتعدون عـــن التيارات » •

وصمت الشيخ ، ثم رفع رأسه • وما كـــاد يفعل حتى قطب فزعا ، وتمتم : « كنت أتمنى على اللـــه أن تكـــذب نبوءتي ، ولكن ••• » •

وأخلد ثانية للصمت ، وحدد طرفه في بقعـــة داكنـــة صغيرة ، وما عتم ان قال : « انظر •• انها تقترب ! » •

قال الربان : « أوضح يا هذا ! » •

فأشار الرجل بيده وأجاب : « أما ترى تلك الغمامة ؟ »

قال : « وما يهمك من أمرها ؟ » •

قال : « انها نذير الويل ، فمثل هــذه السحب تجلب الدمــار ! » •

« ومن لقنك هذا ؟ » •

« الحياة ، والتجربة ، والبحث » •

وتضخمت السحابة الداكنة ، فتضاعفت الظلمات التي غرق فيها البحر •

واستطرد الشيخ : « حول مجرى السفينــة الـــى الغرب » •

« أتظنني مخبولا ؟ » •

« افعل ما أقوله ان شئت النجاة ! » •

« ان حولناها الى الغرب عاكستنا الريــح ، وقللنا من السرعة ، وضربنا في تيه من الموج •• وقد تهب رياح عاتية تحطم كل شيء •• فهل تصر ؟ » •

« أجــل ••• » •

« دون ذلك خرق القتاد » •

« افعل ما ترتئيه » •

« أتريد مني أن أواجه الريح بهذا المركب الصغير ؟ » •

« قلت لك افعل ما تشاء ، عــلى ان تتجنب المشرق ، ففيه العطب ! » •

« سأوجه الدفة اذا الى المغرب كما قلت أنت » •

وحدجه الكهل بنظرة صارمة وقال : « افعل ذلك ، ولكن ان تناهى الى سمعك صوت أشبه بصوت الناقوس ، فقل : لقد انتهينا ! لان الموت يكون بالمرصاد لنا ! » .

فارتعد الربان ، ونظر الى الوجه المعروق وأجاب : « لا أدري ، أمجنون أنت أم نبي ؟ اننا الآن في معترك الظلام ، وأراك تود لو خضنا معترك الموت ! ألا قبحا لك ! »

وابتعد الربان ، وهو يشعر كمن هتك أمنه ! »

وما لبث ان أصدر أمره ، فتحولت السفينة ، وانفتحت ابواب اللجة في وجهها ، فمضت تشق العباب كسكران مترنح يكاد يسقط اعياء !

٣

نهايــة مركب

حدث الربان نفسه وهو يبتعد عن الكهل : « تعسا لـــه ! كان بودي أن ألقيه في البحر ! » •

وشعر بقشعريرة تصيبه فتصتك ركبتاه ، وأهرع الى المقدمة ، فأرسل بصره على سجيته ؛ ثم استدار وهو يـــرد بحزن وأسى : « انه على صواب ، فالخطب يوشك ان يفدح، النهاية تقترب •• ها هي العاصفة تشتـــد عنفوانا •• ها هو الهلاك يهجم على صرحنا ليعاجلنا بالـــردى ؟ يا لكربي ! ان الشجا يدوي في قلبي ! »

❋❋❋

هل وكل بهذا الشيخ باب جهنم ؟ انه يتكلم كالواثق مما يقول !

والتفت الربان الى مكان الشيخ فلم يجده ! واستدار ثانية الى القبة الدامسة ، فاذا الضباب يغشى الافق ويمـــلأ

السماء !

أما الشيخ فقد نزل الى قاع السفينة ، واتجه من فوره الى المطبخ فقعد القرفصاء قرب رجل كان منكبا على اعداد الطعام ، واخرج من جيبه ورقـا وقلما ، ثم اخرج قطعة من الجلد الجاف الابيض ، بسطها أمامه وجعل يـدون عليهـا كلمـات .

واسترعى انتباهه زجاجة كان الرجل الآخر يرفعها الى فمه من حين الى حين ، فحدد طرفه فيها ، وقرأ عليها اسما ما كاد يتبينه حتى جمدت يده ! لقد قـرأ اسم ــ هركانون ــ فما معنى هذا ؟

ورأى ان يسأل ، فقال للرجل : « هل الزجاجة التـي في يدك لهركانون ؟ »

فأجابه الرجل : « انها لـه .. يـا للشقي .. مـا أتعسه ! » .

« أهو نزيل السجن ؟ ألم يطلق سراحه ؟ »

« كلا ، بل ما برح يقاسي ألوان العذاب » .

« في سجن شاتام ؟ » .

« أجل ، وقد احتفظت بالزجاجة كي أتذكره ، فهو خل وفي لا يخنث » .

واستأنف الكهل الكتابة . فلما انتهى. وكأنه كان على ميعاد مع الطبيعة ، زمجر البحر ، ولعلـع البـرق ، وقصف

الرعد ، وارتجفت السفينة وانخلعت . حتى قذف في روع من فيها انه يوم الحشر • وهب الرجل واقفا . فجفف المداد على نار الموقد ، ثم وضع الجلد في جيبه ، وهرول صاعدا •

هدأت العاصفة بعض الشيء ، فعادت الطمأنينة الى القلوب ، وغلب المرح على الركاب ، فانساقوا مع التفاؤل ، وأخذوا يصخبون ويفكهون — وهذه فطرة الانسان ، ينسى في دقيقة ما حصل قبل دقيقة •

هكذا الانسان ، أما كهلنا الاسيان فانه راح يرقب الغمام الاسود ، ويصيخ الى زئير الريح •

وارتفع صوت الرئيس الجهوري يقول : « ها نحن أحرار ايها الرفاق ، فانعموا بالا ، واهتفوا معي : « حمدا حمدا ! » •

ولكن صوتا أهاب بهم : « كفوا عن الضجيج ، فالبحر موردكم حتفكم ! اسكتوا ، هذا الجرس قد ارتفع في البحر صوته ••• ارهفوا السمع ! » •

وصمت الجميع كأن على رؤوسهم الطير •• ودوى الصوت •• ما هذا ؟ أجرس يقرع ؟ ومن يقرعه ؟ وما هذه الليلة القبيحة ؟ أليس لها من آخر مع النهار ؟ لا بد ان الشر قد استيقظ وانطلق من اساره !

وشاء الربان ان يسري عنهم ، فقهقه يضحك وهو يقول : « لا ريب في اننا اقتربنا من اليابسة » •

فأجاب الكهل بصوت حزين : « كلا ، بل نحن على بعد سحيق ! » •

فقال الربان : « بل اننا أقرب ما نكون اليها ، والا فمن اين يقرع الجرس ؟ » •

« من الاعماق •• من اللجة ! » •

« هذا هراء ! » •

« ان لم يكن قولي الحقيقة ، فلا كنت الا رجلا يستأهل الموت ! » •

وساد الصمت ثانية ، وتعلقت احدى المرأتين بعنق رفيقتها ، وأخذت تبكي •

واستمر الصوت يدوي ، واستطرد الكهل : « غريب ان ينبعث الصوت من قاع البحر ، الا انه يصدر بقدرة قادر ، ومتى ارتفع فمعنى ذلك ان البحر يستعد لالتهام لقمته ، ونحن الليلة لقمته ! » •

وصرخت امرأة : « يا للخسارة ! » •

وأعولت الثانية • وارتفع صوت هائل •• وتحطمت السارية !

نشطوا يعملون ويقاومون البحر • فمن يعلم ؟ قد يسلكون من أمرهم خيرا ، قد ينجون !

غير ان الكهل بدا بمظهر الاسيف القانط •

واجتاحت السفينة موجة هائلة ، فكسحت الدفة ،

وحملت معها الربان • وغدت السفينة كريشة في مهب الريح ، ولم يعد في مقدور أحد ان يعلم مكان البعد ومكان القرب في هذا البحر . وفي هذا الظلام !

وومض على حين غرة ، بصيص من نور أحسر أحيا ميت الامل ، فصاح رجلان بصوت واحد : « انه ضوء الشاطىء الامين ! » •

كان هذا بالفعل فنار كاسكنس • وخيل الى الشاردين في البحر أنهم لن يلبثوا ان يطأوا اليابسة •

وتلاشى أملهم بسرعة ، وعصفت الريح بالمركب ، ودفعته الى الصخور • وبدأت المياه تخف ، فتأرجحوا في مياه ضحلة • وتناهى الى مسامعهم صوت تكسر الموج على الصخر ، فزاغت عيونهم ، ثم ما هو الا قليل حتى أغمضوا هذه العيون • ولما فتحوها رأوا المشهد المهول ، رأوا الصخور الشماء كالاشباح السود ، تقف حائلا بينهم وبين الخلاص !

واقترب المركب من الصخور • ولاحت لهم صخرة رهيبة تناطح السحاب ، فصرخوا بصوت واحد :

« بيبلت ••• الصخرة الملعونة ••• بيبلت ! » •

وهتف رئيسهم : « أفيكم من يركب متن الاخطار ؟ أفيكم شجاع ينطلق كالشيطان الى الصخرة بحبل قد تكون فيه نجاتنا ؟ »

ولما لم يرتفع صوت بجواب ، جـــاء بلــوح خشبي عريض ، ألقاه على حافة المركب ، وأمــر رجاله ان ينطرحوا عليه ، حتى اذا اصطدموا بالصخرة ، تحمل اللــوح وطــأة الصدمة ونجا المركب •

وخفقت قلوب الرجال ، ففضلا عن تعرضهم لصدمــة قاضية ، فالناجي منهم يسقط لا محالة في البحــر • ولكنهم لم يجدوا مناصا من المجازفة ، ففي صمودهم الامل والرجاء!

ودوى صوت شديــد ، والتطمت بالمــركب موجــة كالجبل ، وارتطم اللوح بالصخرة ••• وصاح الرجال ألما ، وانطرحوا وهم يتلوون •• وانحرف المركب وابتعد •

فهل نجوا ؟

خفت صوت الجــرس • واكتنفتهم ظلمــة دامسة • وأرغت الشياطين وازبدت •••

انها غاضبة ••• غاضبة •••

فنـــاء

أصبحت السفينة كرة تتقاذفها الامواج والانـواء •
وذهلت نفوس من فيها ، فهم هالكون لا محالـة • وتهاووا على الارض ، وغرسوا أظفارهم في الخشب •• وخيل اليهم ان الله لبى استغاثتهم • فقد هـدأت العاصفـة ، وتقشعت السماء عن نجومها •

ما لبثوا ان وقفوا بعد تهالك ، وشعروا بدبيب الحياة، وعودة الروح ، فتجاذبوا أطراف الحديث ، وضحكوا بعـد بكاء •• وقالوا ، او قالت مشاعرهم ــ اننا في أمان ، ولـن نلبث ان نصل شاطىء السلامة !

ولكن فزعهم المولي أطبق على قلوبهم مـن جديـد ، ساعة قال نوتي :

« ويلنا •• قد هلكنا ! الماء يتسرب ويعلو ! » •

وعقب آخر بصوت متحشرج : « اننا هالكون ، اننـا

غارقون ! » •

حاول رئيس العصابة ان يعرف مكان الثغرة الا انه أخفق في محاولته ، فعاد الى السطح وقال : « ضاع الأمل. فاستعدوا لمواجهة الموت » •

وارتفع الماء ، وغاصت السفينة . ولكنهم لم يستسلموا ، وشرعوا ينزحون الماء بالدلاء • على انهم لم يستفيدوا شيئا ، فقد ضحك منهم البحر وارتفع باستمرار •

وحث الرئيس رجاله على قذف الامتعة الى البحر ، ففعلوا ما أشار به ، فخفت السفينة ، ولكنها ما برحت تتقدم نحو الهاوية •

وقال أحدهم : « أمن شيء آخر يمكن ان نقذف به ؟ » •

فأجابه الكهل دون اكتراث : « أجل •• يتوجب علينا الآن ان نقذف جرائرنا وجرائمنا ! » •

ولغطوا فيما بينهم• وتأمل الكهل في السماء ، وأردف بصوت لا ينم عن خوف : « هلموا •• ألقوا قرائفكم وأوزاركم •• ألقوا بها حتى تطرقوا باب الرحمة بالتوبة •• لنتضرع الى الله فقد يتقبل توبتنا •

« ما أكثر ما جنيتم أيها التعساء ! لقد أضررتم بغلام بريء فشوهتموه ، ثم تركتموه في بهيم الليل ليموت من الخوف ، أو من العاصفة ، او من وحش ضار جائع يجد فيه

ما ينشد ! » •

« اننا ماضون الى المجهول، فلنكفر بالصلاة! اجثوا•• اجثوا •• نكسوا عيونكم ، والطموا رؤوسكم ، واذرفوا الدمع •

وارتفعت أصواتهم : « اللهم ارحمنا » •

ثم اتجهت أبصارهم وعقولهم الى الكهل ، وخاطبوه بصوت خاشع خاضع : « وأنت أيها الحكيم ، مر نصدع ! قل نفعل ما تقول ! »

وأجابهم الرجل : « معضلتنا عظيمة ، فأمامنا هاوية هائلة مجهولة الاتساع والعمق •• أمامنا هاوية رهيبة ، فكيف لنا أن نجتازها دون ان نسقط في جوفها ؟ » •

وانقطع عن الكلام ، وأنصت • وأرهف الرجال والمرأتان السمع ، وانتظروا على أحر من الجمر •

وقال الكهل متسائلا : « أخبروني ، كم بقي لنا من الوقت الذي نحيا فيه بأجسامنا ؟ » •

فأجابه أحدهم : « ربع ساعة ! » •

قال : « هذا يكفي » •

وأخرج من جيبه حبرا وقلما والرقعة الجلد التي خط عليها ما عن له من خواطر ، وقال : « هل لي بضوء ؟ » •

وأسرع نوتي فأحضر المصباح ووضعه قريبا منه وعاد الى مكانه •

وانحنى الكهل فرفع الرقعة الجلدية وطفق يتلو الكلمات الرهيبة ببطء ، وكأنه يتخير اللفظ تخيرا .

وانتقعت الوجوه ، وزاغت العيون ، وشردت الافكار .

وانبجست ابان ذلك العبرات من مآقي العتاة !

غاصت السفينة ، واقترب شبح الهلاك . وانتهى الرجل من القراءة ، فبسط الرقعة على لوح من خشب ، وشرع قلمه فوقعها باسمه ، وكان اسمه جرنادوس جيستموند .

ثم انثنى الى الآخرين فدعاهم الى التوقيع . ولم يتردد أحد منهم ، بل ذيلوا الاعتراف الرهيب بأسمائهم .

ولما انتهوا ، كتب الكهل هذه العبارة تحت الاسماء :

« قاد السفينة ربان واحد وبحاران . انني أسطر هذه الكلمات والردى ينشر علينا ظلاله الحالكة » .

ونادى على الطاهي فأمره ان يأتيه بزجاجة خاوية . فلما جاء بها فتح الكهل سدادتها ووضع فيها الرقعة ، وارجع السدادة الى مكانها ، وغطسها بالقطران الغالي حتى لا يتسرب اليها الماء .

واحنى الرجال رؤوسهم ، وأغمضوا عيونهم ، وارتفع صوت الكهل يقول : « الموت يدنو ... فلنستقبله ! » .

وتناول المصباح فقذف به في اليم ، ثم جثا ، وحذا الجميع حذوه .

وعاد فانتصب ، وتساقطت الثلوج فكسته بلون

أبيض ، فأمسى شبحا لا انسانا •

وصلى بصوته ، وصلى بقلبه ، حتى انعكست ندامته على رفاقه ، فغرقوا في دموع التوبة ، وغرقوا بعد دقائق في مياه البحر •• ولم يبق في قيد الحياة الا الكهل الواقف على قدمين ثابتتين !

وارتفعت المياه الى كتفه ، فرفع الزجاجة الى أعلى •

ومرت دقيقة ، زال على اثرها الكهل ، وزالت الزجاجة ، وغاص المركب الى الابد !

مات ثمانية رجال وامرأتان ، وغرق مركب ••

تلاشت حياة وامحى مجهود ، وتخرمت الحتوف نفوسا ضالة غادرة •

ذهب كل شيء ، الا زجاجة طفت على صفحة الماء ، وانطلقت مع الموج ، وكأنها تبغي التغلب على العدم !

٥

مع الموت في تيه

هل سلمت اليابسة من تلـك العاصفة ؟ هـل كانت الطبيعة أرأف بالارض من البحر ؟ هل نجا الغلام ؟

كان الضباب كثيفا ، والظلام حالكا . وارتعش الغلام، وصرخ . وتخبط في تيه ، كما يتخبط الاعمى في ظلامه ! ومشى لانه شعران الجمود يزيده قنوطا . وتعثر ووقع ، وبكى !

مضى الوقت بطيئا متثاقلا ، وانتهى الغلام من الارض الوعرة الى أرض منبسطة مترامية ، وتضاعف البرد .. ومع ذلك فما كل ، بل حث الخطو ، حتى انتهى به السرى الى أرض فرشها الجليد بطبقة صلبة .

واكتشف ممرا ضيقا ، وآثار خطى لامرأة. وتبع الاثر، وانتهى الى مكان أيقن مما وجده فيه انها مرت منذ أقل من ساعة .. فانتعش أمله ، وتجدد نشاطه .

وتوقف الاثر ، فلم يدر اين اختفت محدثته ، وبينما

هو محتار يتلفت ، اذ بـه يسمع ركـزا خافتـا ارتعدت له فريصته !

واصاخ ، فلم يسمع الحس ، وهـم بمواصلة السرى ولكن الحس الخفي سمره ثانية ، وتكـرر الصوت ، ولمـا اكتشف الجهة التي انبعث منها ، تقدم وهو يغالب فزعـه ، حتى انتهى الى بقعة خيل اليه ان الجليد حفـر فيهـا ، وان ناووسا قد ادخل في الحفرة • وصدر مـن الحفـرة صوت بكاء ، فانكب على وجهه ونبش الثلج ، وطالعه بعد قليل ، وجه علته صفرة الموت •

لم يتحرك الوجه ، او تنفتح العينان • وسمـع صوت بكاء ، فمد يده ولمس الوجه ، ولكن يده ارتدت لانها مست الموت •

كانت المرأة بلا حياة في ذلك التيه ! غـير ان الحيـاة دبت في مكان قريب •• وبحث بيديـه ، حتـى اصطدمتا بشيء ، فتناوله ، فاذا به انسان ــ انسان صغير لا يتجـاوز السنة •

كانت اسمال الطفل تقطر ماء •• انها انثى مشرفة على الموت •• فضمها بحنان الى صدره علـه بذلـك يصونهـا ويقيهـا !

كانت ابنة امرأة برح بها الضنك ، فهامت على وجهها ، ضاربة في هذا التيه • ولما دهمتها العاصفـة ، فتكت بهـا

وأبقت على طفلتها .

وتحسست الطفلة وجهه بشفتيها الباردتين كأنــه ثدي امها . فأخافته برودتهما ، فخلع سترته ولف بها الطفلة ، ثم ابتعد عن الجثة ، ومشى مسرعا ، وجسده العاري يرتعد .

وبالرغم من وهنه ، فقد تمسك بالطفلة ، وبذل طاقته ليتغلب على الطبيعة الشرسة ..

فلو كان ابن نعمة وترف لعجز عن تحمل تلــك الآلام الهائلة ، ولمات قبل ان يصل الى المرأة فينقذ ابنتها .

صبر الغلام أنقذه ، صبره حثه على الكفاح .. فمضى الى الامام ، يقع فينهض ، ولا يكاد ينهض حتى يقع !

ولاح له بغتة بصيص خافت ، فانتعشت آماله، واقترب من النور ، فشاهد من بعيد بضعة منازل ، وشاهد شارعــا ممتــدا .

وعرج على بيت كبير ، فطرق الباب وأعاد الطرق ، فلم يستجب أحد . فتحول الــى بيت أصغر ، وكرر المحاولة ، فأخفق ، لقد نام اصحاب البيتين ، نام الغني الــى جــوار الفقير ..

هل نام أصحاب البيتين حقيقة ، او هــل أنــاخ عليهم شبح الموت ؟ ؟

أهي مقبرة عامة أم بيوت مقفرة ؟

ماذا جرى ؟ هل انقلبت الدنيا الى قفر يباب ؟ وهــل

تلاشت الحياة ؟ ماذا جرى ؟ ولم لا يستجيب الناس ؟ أهـو الطاعون ؟

أجل .. انه الوباء الاسود الـذي لا يبقي ولا يذر ! الطاعون الذي جعل كل امرىء يحصّن بابه .

وتنقل الغلام بين البيوت دون جدوى ، حتى أرهقـه الهم فبكى بكاء مرا . وتساءل وهو يكفكف عبراتـه عـن سبب هذا الصمت والاعراض ...

وعضته أنياب الجوع ، فأن مـن اليأس ، وضم اليـه الطفلة فقبلها وغسل وجهها بدموعه .

وصخ سمعه صوت مخيف ينذر بالخطر !

٦

هومو وارسوس الفيلسوف

ما هذا الصوت ؟ أدمدمة ؟ أزمجرة ؟ أطحن انسان ؟ لو كان رجلا لفر خوفا • ولكنه صغير ، رأى في ليلة ما استل من قلبه شعور الخوف ، لانه رأى الموت !

واستمرت الزمجرة ، ولكنه تقدم •• فثمة كائن مستيقظ ، وبدت له بعد لحظات مركبة عظيمة ، تعلوها غرفة مصنوعة من خشب • وقد ركب فوقها داخون • كما شاهد بابا ونورا ينبعث من نافذة •

وتقدم من المركبة ، فاشتد صوت الزمجرة ، فلم يأبه لذلك ، وخيل اليه ان الوحش مشدود بسلسلة •• ثم تألقت عينان ناريتان ، ولمعت أنياب حادة ، ولم يشك في انها مصيدة ، او حظيرة وحوش يستغلها صاحبها في شؤون العرض والتسلية •

وارتفع صوت يزجر الحيوان ، ويقول : « اصمت ، اصمت يا هومو » •

وصمت الصوت ، ثـم انبعث ثانيـة يقول : « مـن هنـا ؟ » •

فأجابه الغلام : « انسان يطلب الامان ! » •

قال : « ومن تكون ؟ » •

« أنا •• أنا •• » •

« أنا ؟ عجبا ! اسمع صوت فتى ، فمن أنت ؟ » •

« غلام ضائع ينشد الراحة بعد العناء » •

« افي مثل هذه الساعة يجيئنا غلام ؟ » •

« غلام هرأه البرد ! » •

« ولم التجوال في هذا الهزيع ؟ » •

« أكاد أموت جوعا ! » •

« اغرب عن وجهي ! » •

واختفى الضوء ، واحنى الغلام العاثـر الحـظ رأسه وبكى • ثم ضم اليه الطفلة ومشى متعثرا ••

وفتح باب المركبة ، وتدلىَ منـه سلم ، وهتف صوت خشن : « تبا لك ! ادخل •• ادخل •• » •

ووقف الغلام غـير مصدق ، وتناهـى اليـه الصوت الاجش يقول في تبرم : « ادخل ويحك ! انت جائع •• انت منهوك •• انت مبرود •• فمن دهاني بك ؟؟ » •

لم يتحرك الغلام من مكانه • وأردف الصوت مهددا : « ألا تصعد ؟! ألا تمتثل ؟! » •

وهم الغلام بالسلم يزمع ان يرقاه ، ولكنـــه تراجـــع مندعرا •• فقد هدر صوت الوحش !

وصاح الرجل رادعا : « كفى يا هومو ! » •

واختفت الانياب ، واستتلى الرجل : « لا تـــرع •• اصعـــد ! » •

ورقي الغلام السلم ، ولما أشرف علـــى مدخل المركبة ، وقف متأملا ، فرأى موقدا يؤج ، وفوقه وعاء ينفث البخار •

ورأى في الداخل مقعدا وصندوقا أو قنديـــلا غـــير مستعمل ، وخزانة صفت على رفوفها أوان وقنينات وأنابيب، وكانت تستعمل للتحضيرات الكيميائية •

كانت العربة أشبه بصندوق ضخـــم بيضاوي ، وقـــد خط عليها بالحرف العريض :

« ارسوس •• من الفلاسفة » •

***

وقف الفيلسوف ارسوس في ركن من المركبة ، وكان مديد القامة ، نحيلا ، وخط الشيب رأسه ، وتغضن جبينه •

أرسوس فيلسوف في طريقته وفي حياته ، لانه فيهما يختلف عن سائر البشر •• فمن غـــيره يعيش فـــي مركبـــة متجولة ؟ ويستأنس بصحبة ذئب ؟ فالذئب هومو كان أليفه وعشيره ورفيقه في حله وترحاله !

كان هومو أمينا له كالكلب ، وحارسا شديد البأس ، وقد قضى أرسوس السنين في مركبته ، يتنقل من قرية الى قرية ، ومن مدينة الى مدينة ، فيبيع للاهلين عقاقيره ، ويعرض عليهم حركات مدهشة يؤديها الذئب هومو .

وارسوس رجل كامل ، متبحر في علم الانسان ، متعمق في خلجات الانسان ونزعاته .. أرسوس طبيب ومشعوذ وكاتب وحكيم وفيلسوف وشاعر !

ارسوس كل شيء — فهو عظيم في شخصه وتفكيره وانسانيته .. الا انه لا يعترف لنفسه بفضل .

هو متهكم بارع النكتة ، يسخر حينما يجد ، ويقلد الحيوان والطير ، ويتكلم فلا تتحرك شفتاه ، ويخرج صوته الجهير ، فلا تعلم من نطق !

آثر حياة العزلة ، واصطفى الذئب وعاشا معا في سلام وانسجام !

وهومو ذئب .. ولكنه ذئب فيلسوف .. فهو قانع مكتف .. وهو متفاهم مع مولاه بالعين وحاسة السمع والشم .. فهو فيلسوف كما قلنا ، وفلسفته مبنية على الحواس فحسب ...

وقال الفيلسوف للغلام : « ألق ما في يدك ! »

وصدع الغلام ، فوضع حمله برفق على صندوق صغير ورأى الشيخ في حركته حرصا لا موجب له ، فقال ساخرا :

« أخائف أنت على كنزك ؟ ويلك ! انه اسمال وخرق!
قل ، قل ، من أنت ؟ تكلم .. لا ؛ بل اصمت واقترب من
النار ، فأنت مقرور ! » .

ووضع الشيخ يده على ذراعه وشده قليلا ، فتناثر
قميصه ، فصاح : « يا لك من تاعس ! خذ .. خذ .. » .

ورفع يده الى السقف ، فتناول قميصا وسروالا ،
وتابع في لهجة الآمر : « هاك ملابس ، تلفع بها ! » .

ولم يكتف ارسوس ، بل أخذ الغلام بين يديه ، ومرر
راحتيه بقوة على جسده ، الى ان تدفق الدم دافئا في ذلك
الجسد الضامر . وما لبث الشيخ ان أشار الى مقعد متداع،
فجلس الغلام عليه ، وقال الشيخ :

« كل ! أنت طاو .. كل ما في الاناء انه اللحم
والخضار ! » .

ومد الغلام يده ، ثم ارجعها . وزمجر الفيلسوف
وصاح : « أراك تنتظر مني أن ألقمك ! كل أيها الشرير !» .

وازدرد الغلام طعامه ، فقد فرى الجوع حشاشته ؛
ونسي كل شيء ؛ فابتلع الخبز واللحم والخضار ، ولم ينتبه
لصوت البكاء !

وذهل ارسوس ، فقال وهو يحدج الغلام : « ولم
البكاء ؟ » .

ولكنه سرعان ما أدرك ان البكاء لم يصدر عن الغلام؟

فتحرك من مكانه ، وانحنى فوق الصندوق ، ثم رفع اللفافة وهو مبهوت !

وقال : « هذا هو الشيء الذي يبكي ! الويل لك أيها الشرير ! لقد ارتكبت منكرا ! أنت تلتهم طعامـــي ، وطفلتك تسلبني حليبي ! » .

وأسرع فجلب قطعة قماش ، وجاء بزجاجة ، فملأهـــا حليبا ، بعد ان ربط فوهتها بقطعة القماش ، ثم نـــزع عنها أسمالها ، ولفها بملاءة ، ولما اطمأن الــــى نظافـــة الحليب والطفلة ، رفع قطعة القماش ، واسقط في الزجاجة خيطـــا ، ووضع طرفه في فم الطفلة .

وكفت الطفلة عن البكـــاء ، وجعلت تمتص الحليـــب بشراهة .

وتتبع الغلام حركتها وقد ابرقت أساريـــره ، واختلس الى ارسوس نظرات الشكر ، ورمقه باحتـــرام . ولكـــن الشيخ قال بغتة :

« ماذا دهاك ؟ ألا تأكل ؟ » .

فأجابه وهو يجهش : « كلا ، لا أريـــــد ، فأنت لـــم تطعم ! » .

قال : « وما شأنك بي ؟ كل ما في الاناء ! » .

ولكن الغلام تردد ، فصاح به وزجره .

وامتثل الغلام ، فأفرغ ما في الاناء باقبال وشغف !

وامتصت الطفلة الحليب ، فابتسم أرسوس مسرورا ، واحضر حشوة من قطن ، وألقاها على الصندوق ، ووضع الطفلة فوقها ، فنامت •

ودنا من الغلام ، فربت كتفه وهو يقول :

« ملأت معدتك ، والآن هيا نتجاذب بعض الحديث »

وهز الغلام رأسه وأنصت •

وقال أرسوس : « أين كنت ؟ ومن أين أتيت ؟ » •

فأجابه : « لا أدري ! » •

« أتسخر بي ؟ من أين أتيت ؟ » •

« لا أدري •• غادروني على الشاطىء وأبحروا ! » •

« من هم ذووك ؟ » •

« لا أعرف لي أبا او أما او أخوة ! » •

« والطفلة أيها الكاذب ؟ أليست أختك ؟ » •

« كلا ، ليست أختي ! » •

« من أين جئت بها ؟ » •

« وجدتها وأنا أتخبط في التيه ! » •

« كيف واين ؟ » •

« كانت تبكي وهي متشبثة بصدر أمها الميتة ! » •

« منذ متى ؟ » •

« منذ ساعة ، وفي مكان يبعد ميلا » •

أطرق ارسوس مفكرا ، وقال وكأنه يناجي نفسه :

« الموت راحة أبدية ، فلترقد حيث هي هذه الام الشقية ؟» •

وعمد بعد ذلك الى دثار ألقاه على الطفلة ، وأمر الغلام ان يرقد قريبا منها ، ولم يعتم ان ربط وسطه بسيور من الجلد تتصل به جعبة فيها زجاجات مليئة بالعقاقير والآلات ، ورفع المصباح من مكانه وغادر المركبة •

ونادى على الذئب ، فوثب الوحش وهو يزمجر ، فقال : « اصمت يا هومو ! » •

ثم رفع صوته متسائلا : « وأنت أيها الغلام ، هل نمت ؟ » •

فأجابه : « كلا •• لم أنم بعد » •

« لا تنس ان تقدم بقية الحليب للطفلة ان استيقظت باكية » •

وابتعد أرسوس وهومو ، وغفا الغلام ، ورقص ملاك الطهر فوق رأسي طفلين بريئين ، وكان القدر في تلك الليلة يحوك خيوط أيامهما !

***

هب الغلام من رقاده ، فتلفت مبهوتا لا يكاد يصدق عينيه • وسمع بغتة صرير المفتاح ، ودخل ارسوس والذئب وكان الفيلسوف يتمتم بصوت متقطع : « لقد اراحها الموت ! انها متخشبة ، وكأنها الموت بعينه ! »

ونكت النار بقضيب من حديد واستأنف كلامه : « لولا هومو ، لما وجدتها ، كانت جثتها باردة متجمدة •• ويدها ، ظننتها قطعة من الجليد •• كيف ترضى بالموت ومعها مثل هذه الرضيعة ؟ »

وضحك الفيلسوف ، واردف : « اصبحت رب عائلة •• بيتي صغير ، ولكننا سنتدبر امورنا ! »

وكان هومو خلال ذلك يلعق يد الطفلة ، وكأنه ام رؤوم ، فقال ارسوس : « سقيا لك يا هومو ! اصبحت عما ، كما اصبحت انا أبا ! »

وانثنى ينظر الى الغلام ، وقال وهو يصرف بأسنانه : « ويلك أيها الصبي ! لماذا تضحك ؟ »

فقال الغلام وهو يرتعش : « انني لا أضحك ! »

واختلجت اهداب الرجل ، وقال بلسان متلعثم : « انت مخيف ••• انت مسكين ! »

ثم خطا نحوه فأمسك به ، وعاد فقال : « لا تضحك•• لا تضحك •• »

فأجابه الغلام وهو يشرق بدمعه : « انني لا أضحك !»

وسرت قشعريرة مثلوجة في ظهر أرسوس ، وأصابه انفعال شديد ، وقال بصوت متهدج : « انت تضحك ، فلا تكذب ! »

ولطمه ، ثم قال مسترضيا : «من انزل بك هذه الكارثة ؟ »

« ماذا تعني ؟ »

« متى بدأت تضحك ضحكتك الابدية ؟»

« لا اذكر نفسي خلافا لما انا عليه » .

فاشاح الفيلسوف عنه بوجهه وهو يتمتم بصوت يسيل رقة وألما : « قبحا للانسان ! لن يتورع عن فظائعه ! ابق يا غلام كما انت .. اضحك ما شاء لك الضحك ! »

واستمر الغلام يضحك ... في الليل والنهار .

وتنبهت الطفلة ، وارتفع صوت بكائها ، فأهرع اليها ارسوس بالحليب .

وبزغت الشمس على العائلة الجديدة ـ على الاب ارسوس ، والعم هومو ، والغلام الضاحك ... والطفلة .. الطفلة التي فتحت عينيها ، فلم تبصر بهما !

وصرخ الغلام ملتاعا : « اواه ! »

وعقب ارسوس : «انها عمياء.. عمياء.. يا للشقية !»

٧

اللورد كلانشار

لكل عصر رجال . عاش في ذلك الحين وقبله وبعده نبلاء سطروا تاريخ البلاد بأفعالهم ، وعينوا الاتجاه الذي تنهجه .

فاللورد كلانشار تحمس للجمهورية التي انشأها كروموبل على أنقاض الملكية . بيد انه لم يكتب لها طول العمر ؛ فزالت واسترجع الملك سلطته . الا ان اللورد كلانشار تشبث بعقيدته ، وابى ان يتملق الملك ، وارتحل عن انكلترا واقام في قصر قديم في جنيف .

من جراء ذلك صادرت الحكومة امواله ، ومع ذلك فلم يتراجع عن موقفه استرضاء للملك شارل الثاني .

وبلغ الرجل من العمر أرذله . وكان قد اتخذ له خليلة ابان الشباب تنتمي الى الطبقة المترفة . وأنجب منها ابنا ، كان مولده في يوم انهزام الجمهورية وارتحال اللورد الى منفاه .

كانت الخليلة من الصفوة كما ذكرنا ، لهذا بقي البلاط مباحا لها • وكانت جميلة فاتنة ، عرفت كيف تفسح لابنها المجال في معترك الحياة •

وأحبها الملك ، فاتخذها محظية له ، وحبا ابنها النغل بأحسانه ، فأصبح ضابطا في بحرية جلالته ، واحد افراد الحاشية الملازمة للملك • وقد اطلق عليه اسم اللورد ديفيد موير ، فتناسى الناس انه ابن الزناء ، واعتبروه من النبلاء •

وكان أبوه يقاسي شظف العيش في منفاه ، وقد هرم واصابه الوهن •

واعتلى العرش الملك جيمس الثاني ، فنال اللورد ديفيد حظوة كبرى لديه •• ولن نغمط الشاب حقه ؛ فهو وسيم وشجاع ، وهو خفيف الظل قريب الى القلب • وهو الى جانب هذا كان بارعا يتلمس طريقه في حذر وتريث •

احبه الملك ، واصطفاه صديقا ورفيقا ، وأسبغ عليه المال والعقار ، واسند اليه منصبا رفيعا في القصر ، وثمد له طريق الوصول الى مجلس اللوردات •

غير ان العقبات كانت تحول بينه وبين هذا المجلس ، فلكي ينتخب رجل عضوا ، لا مندوحة له من ان يكون عريقا متحدرا من أب نبيل وجد نبيل ، ومن ان يكون صاحب ضياع ، وصاحب لقب ورثه عن أبيه •

واللورد ديفيد اكتسب اللقب اكتسابا ممالأة من الملك

لأمه • وتواترت بعد حين الشائعات عن موت اللورد كلانشار ، وانه اقترن بامرأة تسمى آن برادشو قبل وفاته ، وانجب منها طفلا •

وطمس الملك جيمس هذه الشائعة ،•ثم اصدر امرا ملكيا يخطلها ، ويسجل في قيود مجلس اللوردات ان الرجل قضى نحبه دون ان يعقب وارثا شرعيا ، وان اللورد ديفيد هو وارث ابيه الوحيد ، ولا يحق لغيره ان يحمل اللقب ويستولي على التركة ، شرط ان يتزوج بفتاة كانت في تلك الايام طفلة احاطها الملك بكل ضروب الحب ، ووهبها لقب الدوقة جوشيانا •

ولكن ديفيد أحجم عن الزواج • واكتهل ونيف على الاربعين ، وناهزت الدوقة جوشيانا الرابعة والعشرين في سنة ١٧٠٥ ، ومع ذلك لم يقترنا •• وبقي الشرط قائما ، وبقيت الكلمة النهائية محتارة غير مستقرة !

لم يكن اخلالهما بارادة الملك نفورا متبادلا •• بل ان رغبتهما عن الزواج كانت وليدة أمل جياش في صدر الفتاة في الاحتفاظ بحريتها ، وتهافت ديفيد على المتعة ، وخوفه من الحرمان ان هو تقيد بأغلال الزواج •

والعجيب انهما تراضيا على اتباع هذه الحياة المستقلة، وان كانت عرى الصداقة تشج القلبين برباط وثيق • كانت الفتاة ذات رواء •• مذهبة الضفائر ، مليحة القسمات ،

ممشوقة ملتهبة الذكاء ، معتدة معتزة متعجرفة .

كانت خليطا متناقضا من المشاعر ، وكانت لغزا غامضا .

أما ديفيد ، فكان من أقطاب المجتمع ، لبق ، أنيق ، يحب الميسر والرقص والقنص والملاكمة .. وكان محترما موثوقا برأيه ، ترجح كلمته كفة على كفة .

وله ايضا علاوة على هواياته الكثيرة ميل خاص الى الحيل التي يجريها المشعوذون ، ويؤديها المهرجون . وكان يرود تلك الامكنة متنكرا ، ويمتزج بكل طبقة ، حتى عرفه الكثيرون بالبحار الطيب ، لانه كثيرا ما كان يظهر بينهم في لباس بحار . وكذلك اطلقوا عليه اسم طوم جيم جاك ، حتى اشتهر بهذا الاسم ، كما اشتهر بقوته وبسالته .

وعرفت الدوقة جوشيانا اخباره ، فلم تلمه ، بل سرها ذلك منه ، واعجبت بشخصه وعاداته !

***

مات الملك جيمس وخلفه على العرش الملكة أنا . وكانت في البدء لا تضم بين جوانحها الا الطيبة وحب الناس . غير ان الحكم سلبها رحابة صدرها ، فأضحت بعد سنة متقلبة ، تثور وتهيج لادنى سبب .. وشاب طيبتها شوائب من الشر وحب الاذى .

كانت انسانا لين العريكة لا تستطيـــع التحكم بارادتها اذا دخلت عوامل اخرى في حياتها •• ولهـــذا فقدت عادات وتطبعت بعادات بعد ان تسنمت الذروة واعتلت العرش •• وسرعان ما مالت بعاطفتها الى الناحية التي تجري مـــع نزغ الشيطان •• فارتاحت نفسهـــا الـــى الكوارث والمصائب ، وكانت تنزع الى السخرية والعبث والفكاهة العنيفة •

كانت بعيدة عـــن الجمال ، عكر جمال الغير حياتها ، وأرث نار غيرتها •• وقد نقمت على الدوقة جوشيانا لانهـــا فاتنة تخلب الالباب •• والسبب الاهم في حقدها، هو انهما كانتا في الواقع شقيقتين ، الا ان البون كان شاسعا بينهما ؛ فهي ملكة ، ولكنها ملكة لا يرتاح لمرآها النظـــر ! وتلـــك دوقة ، ولكنها مطمع كل سمع وبصر !

٨

الجـاسوس

الفضول غريزة وطبع ! وكل انسان يرغب فـي حيازة ما يجد الى حيازته سبيلا .

فالدوقة جوشيانا ، مع احتقارها لعاطفة الحب ، كانت ترى في اللورد ديفيد حقا لها دون سواها . كانت تعتبره رجلا مملوكا لا ينبغي على غيرها من النساء ان تحظى منه بطائل ، ولهذا لجأت الى رجل حقير يدعى باركفلد ، فأمرته ان يرصد حركات اللورد . ومن ناحية اخرى علـق اللورد يتتبع افعال الدوقة بحقير من الرجال ويدعي « باركفيلد ! »

ولم تأنف الملكة من التجسس عـلى الاثنين بواسطة جاسوس يدعى باركفيلد !

فباركفيلد رجل في ثلاثة ، باركفيلد مثلث ، باركفيلد ثلاثة أجزاء تتعارض وتتنازع .. ومع ذلـك فهـي مندمجة كليا في باركفيلد جاسوس الملكة ، والدوقة ، واللورد !

خلق في محيط فاسد وضيـع ، وحـاول ان يكتسب

احترام الناس بخبثه ، ففشل ، وتألب عليـه البؤس والفاقة ، غير أن ضنك الحياة ، والحرمان ، لـم يؤثر فيه ، بل واصل الكفاح وتقدم ببطء • واشرأب بعنقه الى الطبقات العليا من الشعب ، حيث المال وفير ، والجاه له ظل ظليل •

وتشمم الناس ذلك الصعيد المرتفع من المجتمع ، كمـا يتشمم الكلب قطع اللحم ليتعرف على أشهاها ، ومـا لبث ان اتخذ له هدفا في الدوقة جوشيانا •• ومـا زال يتمسح بأعتابها ، حتى شعرت به الدوقة ، فأخذت بيده ، وقدمته الى اللورد ديفيد ، ثم درجته في عداد خدمها •

وقرت عين الماكر ، وامتلأت معدته • بيد انه لم يكتف، فهو طموح ! ولما استتب بـه المقام فـي قصر الدوقة ومـع حاشيتها ، تذرع يوما بحجة تفتقت عنهـا قريحته ، والتمس مقابلة سيدته الدوقة •

فلما وجد نفسه في حضرتها قال وهـو يحني هامته : « انا يا مولاتي راغب فـي العمل ، وابتهـل ان تشمليـني بمساعدتك فتؤمني لي وظيفة ! »

فقالت متهكمة : « وظيفة لك ! »

« اجل يا مولاتي » •

« أنت أخرق ، لاني عجمت عودك » •

« لهذا قصدتك بخضوع ! »

« واي عمل تفضل ؟ »

« وظيفة خطيرة ، لا مثيل لها •• فاتح قنينات البحر» •
« ويحك ايها المهرج ! أضحكتني ! »
« كلا ، أنا لا افكه ! »
« لم هذا الكلام اذا ؟ سآخذك بحلمي ، ماذا تريد ؟ »
« وظيفة فاتح قنينات البحر ! »
« حذار ، فأنا غضوبة أبطش بمن يهزأ » •
« ثقي اني ابعد ما يكون عن الهذر » •
« أيوجد هكذا وظيفة ؟ »
« انها موجودة يا مولاتي » •
« انت كاذب •• أعد كلماتك ! »
« وظيفة فاتح قنينات البحر » •
« اذا وجدت ، فهي تناسبك ! »

واطرق باركفيلد وهو يتكلف الغوص في الفكر ، وما عتم ان قال :

« ما أكثر اسرار البحر ، والحكومة حريصة على الظفر بكل ما يلفظه البحر ، لان فيه امورا خطيرة • قد يرسل صاحب سفينة خبرا ، وهو يرى مركبه يتمزق » •

« أحقا ما تقول ؟ وهل هناك فعلا مثل هذه الوظيفة ؟ »
« نعم ، في بحرية الملك ، وتناط برجل يعتبر ضابطا » •
« وظيفته اذا فتح القناني ! فكم عددها • كثيرة ؟ »
« كلا •• والرجل الذي يحظى بها يمنح بيتا وراتبا

مقداره مئة جنيه في السنة » .

« تبا لك ، أأتوسط في امر تافه ؟ »

« المئة جنيه بالنسبة لي ثروة ! »

« ما دامت هذه نظرتك ، فثق انك نائلها ! »

***

برّت الدوقة بوعدها ، وعين باركفيلد في الوظيفة . الا ان اللئيم لا يعترف بفضل .. وكان من اللئام .. وكان يوم تسلم الوظيفة على موعد مع الشيطان .. فهو ما كاد ينال وطره ، حتى وطن النفس على الكيد للمحسنة اليه !

كانت الوظيفة ذات خطورة ، فانكلترا بلاد تعيش على الملاحة وتحيا من البحر ، وهي لذلك تعبأ كثيرا بالسفن ، وتتتبع اخبارها ، وتتقصى حوادثها . وكانت البحرية تفرض رقابة دقيقة على الشواطىء ، وكانت تجمع القناني التي يقذف بها الموج .. وكان الشخص المنوط به هذا العمل مفروضا فيه ان يكون أمينا لبلاده وامته .. كان يفض اختامها ، ويقرأ ما فيها ، ثم يوجهها الى المعنيين .

وكانت المعلومات مختلفة ، فهي تارة تصف تمردا ، وتارة تنبىء عن اصطدام وغرق ، وتارة ثالثة تتحدث عن رياح عاصفة ونوء هائل .

وقد شاعت هذه العادة ، لهذا كان متقلد الوظيفة

محترما ، خلافا لما ادخله باركفيلد في روع الدوقة !•• فهو يستحق الاحترام ويلج القصر الملكي ، ويتصل بالوزراء •• حتى الملك والملكة يستطيع ان يخترق الحصار المضروب حولهما !

فالقنينات كانت تحمل فيما تحمل ، وصايا الرجال الكبار ، او اوصاف جرائم هائلة ، او اعترافات خطيرة بأسرار غامضة ، او اخبارا صادقة عن أشخاص يظهرون ما ما لا يخفون ، ويبطنون ما لا يبينون •

بالتوسل والضراعة توصل باركفيلد الى شق طريقه ، واستطاع ان يتصل بالملكة نفسها • وباتصاله هذا دان له التوفيق ، وغدا قادرا على الايذاء ! فهو لا يحب المال مقدار حبه للايذاء •• انسان شيطان •• او عميل للشيطان ، ذاك يشير وهذا يصدع وينفذ !

لقد وسمه اللؤم بميسمه ، والحقد بعلامته ، فكان اصفر اللون ، غائر العينين ، خسيسا وضيعا !

ما عتم ان تغلغل في البلاط ، وعرف أصحاب الالقاب!

والجاسوسية أمضى سلاح في يد الخسيس ، ولها شأن كبير في كل بلاط ، وبين كل حاشية !

وكانت الملكة تحيط نفسها بعدد من الجواسيس ، حتى تطلع على اخبار حاشيتها ، واسرارهم ، وما يفعلون !

وسرعان ما اضحى من جواسيسها ، فجعلت تكل اليه

أخطر المهام •• وقرت عين الجاسوس ، فنشط يحوك الدسائس ، ويدبر المكائد •• ووجه سهمه السام الى الدوقة ، ثم الى اللورد !

لم يذخر وسعا في استنباط الوسائل اضرب هذه المرأة التي أحسنت اليه ، في صميم قلبها ، وتسريغ جبينها المرتفع شمما وكبرياء •

الا انها لم تحسب له حسابا ، او تشتبه بخبث نواياه ، فهي تحتقره وتعتبره مخلوقا فسلا وضيعا •

وضاعف تجاهلها له من مرارته ، فوضع نصب عينيه التعجيل في طعنها وسحقها !

كانت الملكة تغار من شقيقتها الدوقة واكتشف الجاسوس ما طابت له نفسه ، وأيقن ان في غيرة الملكة ينطوي سر النجاح •• وعلم انه باثارة حفيظة الملكة يفوز بضالته •

واتفق في حلبة السباق ان مر اللورد ديفيد على جواده ، فرأته الملكة، ورآه باركفيلد ، ولغط الناس وقالوا:

« ما أروع الفارس ! » •

وقالت الملكة على مسمع من باركفيلد :

« لشد ما أستثقله ! » •

وشده باركفيلد ، ولكنه سر في قرارة نفسه ، فقد عرف ما جهله •• علم ان الملكة تغار من شقيقتها ، وتأحن

على اللورد ديفيد لانه صديق شقيقتها الحميم • وأيقن انــه يستطيع ان يوجه ضربته القاضية على الدوقة •

فكيف ترى ينتقم ؟ وممن ترى ينتقم ؟

يا للانسان !

***

كان اللورد ديفيد خطيب الدوقة •• فالكل يعرف من أمر الوصية ما يعرفه ديفيد والدوقة • ولكنهما لم يستجيبا لرغبة الموصي ، فيتزوجــا ، وان كانــا يجتمعان ويقضيان ساعات في المتعة والمجون ، وفي دور التمثيــل ، وملاعــب الرياضــة •

وذهبا في ليلة ماطرة الــى دار كبيرة لمشاهدة حفلــة ملاكمة ، وترأس الحفلة احد اللوردات ، بينما عين أربعــة محكمين مشهود لهم بالكفاءة والنزاهة • كــان الملاكمــان ارلنديا واسكتلنديا ••

كان الاسكتلندي في أول العمر ، وقد برزت عضلاته، ودلت خطواته على قوة وصلابة • وفي الوقت ذاتــه كــان الارلندي كهلا مفرطا في الطول ، بدين الجسم ، مما اقنــع الجمهور بأن الاسكتلندي قاهره لا محالة بضربة ساحقة •

اشتد البرد في تلك الليلة • وكان الملعب مكشوفا •

وأعطيت الاشارة فتقدم الخصمان من بعضهما البعض

فتصافحا •• وما عتما ان اشتبكا في قتال شرس •

وحمي وطيس القتـال ، وانقض الاسكتلندي عـلى خصمه ، ولكمه بقسوة ، لكمة تفجر مـن شدتها الـدم ، وطاشت سهام الارلنذي ، ولوح بيديه في الهواء ، ولكـم الفضاء ، وكأنه يفوض أمر اصابة خصمه الى القضاء !

ودار الاسكتلندي دورة نمـر وسدد لخصمه لكمـة هائلة ترنح هذا على أثرها وسقط •• ولكنـه نهض بعـد لحظات •• ودوى الجرس ايذانا باستراحة قصيرة •

واستأنف البطلان الملاكمـة ، وتنـاول الاسكتلندي رأس خصمه بين يديه ، كما يتناول الانسان بطيخة ، وأهوى على فكه لكما ولطما !

وتخلص الرجل بعد لأي ، ورفع الـى النظارة وجهـا داميا ، وتنحنح فسقط من فمه أربع أسنان !

حان ميعاد الجولة الاخيرة ، فتلاحما •• وفـي لمحـة خاطفة شاهد الناس المتلاكمين يسقطان معا •• ولكنهم بهتوا ساعة رأوا الكهل يعود الى الوقوف ، بينما انطـرح الشاب دون حراك • لقد انتهز الكهل الفرصة ، فضربـه ضربـة ممنوعة !

وصفق الجميع •• لقد انتصر المغلوب عـلى خصمه ! وحمل الشاب بسرعة الى الخارج ، وخرج اللورد ديفيد مع الدوقة جوشيانا •

وقالت الدوقة وهما في الطريق : « كانت مباراة ممتعة، لولا ... » .

فقاطعها قائلا : « لولا ماذا ؟ » .

« لولا انها زادت من انقباضي ! » .

تريث اللورد ، ثم هز رأسه وأجاب : « عندي عــلاج لك ، فانعمي بالا » .

« وما هو ؟ » .

« جو نبلان ! » .

« جو نبلان ؟ » .

« أجل .. أجل .. جو نبلان ! » .

٩

جـونبـلان

وجه عجيب ! شذوذ مفرط في أمائر انسان ! فم يمتد من الاذن الى الاذن .. اذنـــان متصلتان بعينيـــه .. انف مفرطح مضغوط داخل الوجه !

تقاطيع تضحك من لا يضحك .

فهل أوجده الله بهذه السحنـــة المشدودة المـــدودة المضغوطة ؟

أخلقه الله مشوها ، أم تفننت يـــد انسان فـــي تغيير المعالم ، وتبديل الامائر ، ومسخ الوجه طولا وعرضا ؟

أجل .. لقد تناولته يد انسان بالتشويه ، فمزق الفـــم وضوعف اتساعه .. وقطع من الشفتين جزآن ، حتى ظهرت اللثة بصورة دائمة ، ومغطت الاذنان.. وداعبت اليد المجرمة الجفنين والخدين ، مخرجة من هذا كله مزيجا من التناقض ، عرف فيما بعد باسم جونبلان !

تنقل جونبلان من مكان الى مكان ، فأضحك الحزين،

وارغم الثاكل على الابتسام !

ما اكثر ما أضحك ، فهل كان هو يضحك ؟ هل ضحك جونبلان ؟ كلا •• كلا •• لم يضحك قـــط ! كان وجهـه يضحك ، الا ان قلبه حزن حزن الموت !

مسكين ! اذا دهش ضحك •• واذا خاف ضحك •• واذا حزن ضحك •• واذا غضب ضحك •• واذا فـــرح ضحك ••

كان ضحكه الابدي يرسل الرجفـة الـى القلوب •• فالرجال يضحكون ثـــم يشيحون بوجوههـم ، والنساء يضحكن ولكن بخوف ظاهر !

مشوه ! وتشويه خلقه رهيب •• أما تكوينه ، فكـان رجلا بكل ما في الكلمة من معنى ـ بنيـة متينة ممشوقة ، وقوة تتبدى في حركاته ، ويدان كلهما عزيمة وصلابة •

فمن هو جونبلان ؟ من غير الغلام الذي تركته العصابة وراءها ، على الشاطىء في خليج بورتلاند ، في تلك الليلـة المطيرة منذ سنين ، وكان مصيره مجهولا ، مرتبطـا بمصير أرسوس الفيلسوف ، وذئبه هومو ، والطفلة اليتيمة التـي التقطها عن صدر أمها ؟

ما وافى عام ١٧٠٥ حتى شب جونبلان عـن الطـوق وأصبح في عنفوان الشباب •

وكان ارسوس قد اعتنى به وبالطفلة ، وكون منهمـا

بعد مدة ومن ذئبه أيضا فرقـة متجولـة ، تلعب وتهـرج وتتقاضى دراهم معدودة من كل متفرج .

وبلغت الطفلة عامها السادس عشر ، واكتمل تكوينها ، فاذا بها فتاة جميلة هيفاء ، دعجاء العينين ، ينبثق منهما نور عجيب ، ولكنه نور خامد لا يرى ولا يبصر ــ كانت عمياء !

لم تخلق عمياء ، بل الزمهرير الـذي أودى بأمهـا ، طمس بصرها ، فنشأت عمياء لا تبصر ..

لم تر شيئا ، ولم تر وجها ، ولا شمسا ولا قمـرا .. ومع ذلك فقد انبأها حسها ان المشاهد تزخر بهـا الدنيـا ، فيراها الناس .. ولهذا نطقت نظرتها بألم دفين وحزن مرير .

وكأن ارسوس أراد ان تمتـد فلسفته لكـي تتصل بسخريته ، فأسماها نورا لعل الفتاة ترى في هـذا التناقض خير عوض لها !.. وكان قد سأل الغلام عـن اسمه ، ولمـا أخبره انه يعرف باسم جونبلان ، رأى أن يستبقي الغلام هذا الاسم .

وتعاون المشوه والعمياء في العمل .. وكان الاندماج مأساة وأي مأساة .. كان عنوانا صارخا للظلم والطغيان .

كان جونبلان عيني نور ، وكانت نور وجه جونبلان !

وانعدم الامل في محيـط حياتهما ــ فجونبلان يعيش بلا وجه ، ونور كانت مكفوفة ... وهكذا انعدم الامل !

عاشا بلا أمل ، يكتنفهما شقاء ، ويحيط بهما عنـاء !

بيد ان الزمان كان يتمخض عن حـدث مذهل ، وما عتـم التمخض ان أسفر عن ميلاد حب !

عاشا بلا أمل ، ولكن آصرة حـب شرعت تشج بـين القلبين ، حتى استحال الشقاء سعادة ، واستحال اليأس أملا وعاشا بأمل .

أحبها وأحبته ـ أحبها حب العابد ، وأحبتـه حـب العابدة ! ورنا اليها بعينين جاحظتين ، ومررت أناملها عـلى وجهه وهي تقول :

« ما أجملك ! ما أروعك ! » .

« نـور ... » .

كان جونبلان يهتف :

« أنا أحبك ... » .

وكانت تجيب : « جونبلان .. ما أسعد قلبي بك ! » .

فهي الانثى الوحيـدة التي شعرت بكيانه وقدرته .. وقد أنبأها أرسوس بما فعله من أجلها ، وكيف أنقذها .

وحفظت نور له هذا المعروف .. فلولاه لمـا وجدت ، بل كان مصيرها الموت والهلاك .

كانت تعتبره المنقذ والمرشد والهادي ، في حين كـان الناس يعتبرونه ضحاكا .. فهـم لا يستشفون مـا في الاعمـاق !

كانت ترتاح اليه وتنعم بحديثه .

قلبان مكلومان مستهما يد الرحمة ، فاتحدا واندمجا ، وارتاش هذان القلبان ليطيرا ، وطارا محلقين فوق الرؤوس بقلبيهما حلقا ، لان فيهما خلق شعور سام نبيل •• وشاهد أرسوس التفاعل العجيب ، فقرت عينه •• فهو فيلسوف لم يفقد أحاسيس الاب •• وقد أحب الاثنين وكلأهما بعنايته !

لم يستقر بهذه الاسرة الصغيرة مقام ، كانت تتنقل سعيا ووراء الرزق ، ولم يعق هذا ارسوس عن تلقين جونبلان دروس الحياة ، وفلسفة الحياة •

كما انه علم نور فن الصوت ، أي فن الغناء بالطريقة التي يتطور فيها الصوت من حسن الى أحسن •

***

سارت المركبة في الطريق الخصبة المفضية الى القرية . في ليلة باردة من شتاء ١٧٠٤ ، وكان يجرها جوادان ، وقد اكتست باللون الاخضر ، وعرفت بين الاهلين بالمسرح الاخضر •

كان المراقب يرى في جانبيها كوتين صغيرتين ، وفي مؤخرتها بابا متوسط الحجم ، يليه سلم خشبي غير ثابت ، ولو رفع المراقب رأسه الى أعلى المركبة لشاهد مدخنة سوداء •

كان سائقها رجلا هرما يتوسط امرأتين من الغجر ،

منشغلتين بالدق على طبلتين ، ووراء المركبـــة ســـار حيوان مريب الشكل !

هذه هي مركبة أرسوس ، وقـــد حـــالف اصحابهـــا النجاح بفضل جونبـــلان ، فادخلـــوا عليهـــا التحسينات ، وجعلوا منها ملهى متنقلا بين المدن والقرى •

فأرسوس درب الغلام ، ثم أخذ يعرضه على الناس • وأحدث بروزه في الامكنة العامة ضجة عظيمة ، حتى أصبح ظهوره في مكان ما كافيا لاهراع الناس • وكان الاطفـــال يخافونه ، ولكنهم لم يهربوا منه •

تضاعف دخل أرسوس ، فحفزه الكسب الى مواصلة السعي • وتعاقبت الايام ، وزاد الخير ، وتضاعف الدخل ، فجدد ارسوس مركبته ، وأضاف ألعابا كثيرة الى ألعابـــه ، وابتاع الجوادين ، واكترى المرأتين •

كانت الغجريتان دميمتين ، أطلق أرسوس على الاولى اسم فيبي ، وعلى الثانية اسم فينوس ، وكان عملهما قـــرع الطبول ، وخدمة المركبة وتنظيفها •

قسم أرسوس المركبة الى ثلاثة أقسام ، فصل بينهـــا بسجف صفيقة • القسم الاول خصص للرجـــال ، والقسم الثاني للنساء ، أما القسم الثالث او الاوسط فقـــد أفـــرد للمسرح ، وصنع له باب يرتفع وينـــزل بسلسلة ، ويستعمل كمسرح تعرض عليه الجماعة ألعابها • ولو ان المسرح أحيانا

كان يقام في باحة تتوسط البيوت •

اما ارسوس ، فكان مديـــر التمثيــل ، والعازف ، والموجه • وكان بارعا في محاكاة الطـير والحيـوان فـي أصواتها ، ويتكلم ، فلا تتحرك شفتاه •

اما الذئب هومو ، فيتصرف كانسان ذي عقل وفكر ، فيقف في أدب جم ، ويلازم أرسوس حينما يتنكر في اهاب دب أبيض •• حتى تعذر على الكثيرين التفرقة بين الانسان والحيوان ، كلما برز الاثنان على المسرح •

ووضع ارسوس فاصلا تمثيليا لجونبلان ونور ، أسماه انتصار الانسانية ، وكان المشهد الاول عبارة عن مكان مظلم يقف فيه اشباح ثلاثة لانسان ودب وذئب ، وكان الذئب هو هومو ، والدب أرسوس متنكرا ، والانسان جونبلان •

والدب والذئب هما الوحشان الضاريان ، او الغـدر والجهل ، وعدوهما اللدود هو الانسان الذي يركزان عليـه هجومهما ، فيدافع عن نفسه ، ويستغيث ، فتختلط اصوات الاستغاثة بزمجرة الجهل والوحشية •

وتخور قواه ، فينهار وتفتر حركته • وتهدأ الضجـة المفتعلة وينصت المشاهدون ، وكأن على رؤوسهم الطير •

ويرتفع على حين غـرة صوت شجي يغـرد ويغني •• ويعلو الصوت ، ثم تتقدم نور بوجهها الحلـو ، فيستمد الانسان المتهافت من صوتها قوة تفوق قوته ، فيثب بخفـة

ويهاجم الوحشين ويجهز عليهما .

وتنبعث من جهة ما نار باهرة، فتسقط على الانسان.. وترتفع أصوات الضحك حينما يشاهد الجمهور وجها عجيبا مضحكا .. وترن الضحكات في سمع جونبلان كأنها مطرقة تدق رأسه .

هكذا عرف جونبلان بالرجل الضاحك .

على ان معظم النظارة كانوا من المعوزين ، وكان جونبلان يقرأ في وجوههم كلمات البؤس والحرمان .

ورب متبطل جاء ليزجي وقته ، ورب متشرد جاء ليسرق .

ولطالما فكر جونبلان في شقاء الانسان .. كان يفكر كثيرا ، وكان قلبه يبكي .. ولكن وجهه كان يضحك الى الابد .

وتمنى ان يساعد هؤلاء المملقين ؛ الا انه كان مملقا.. ولهذا اكتفى بالشعور معهم .

وغاب عن باله أنه يساهم في التخفيف عن الفقراء ، وفي التفريج عن كرب البؤساء ـ انه ينتزع الشقاء من قلوبهم .. أجل .. انه يضحكهم !

والضحك ترياق .. الضحك أمل .. الضحك ابتعاد عن البهيمية .. والاضحاك فن قائم بذاته .

* * *

كتب على المركبة بأحرف صغيرة :

« عجيبة خارقة •• رجل شوهه المجرمون وهو طفل ، وعثر عليه صدفة على شاطىء بورتلاند ••• شاهدوا جونبلان الرجل الضاحك ، واضحكوا معه حتى الموت ! » •

أجل ••• اضحكوا مع جونبلان حتى الموت ••• وابكوا !

فــي لنــدن

لم يضحكوا في لندن ، لانهم ما رأوا جونبلان !

تضاعف الاقبال ، وكثر مـا جنـاه أرسوس ، وفتح الرجل الفيلسوف عينيه فرأى غنى بعد فاقة .. ولعل الغنى نأى به بعض الشيء عن فلسفته وتصوفه .

أرسوس الكهـل ، أو الشيـخ بعبارة أدق ، جعـل يبحث عن مزيد من المال بعـد نجاح جونبلان ، ولكنه لـم يجد في القرى ضالته ، وطن النفس على التوجه الى لندن ، ففيها ما يصبو اليه .

في ذلك الزمان لم يكن في لندن سوى جسر واحـد يعرف بجسر لندن ، كان هذا الجسر متصلا باحدى ضواحي العاصمة ، وهي ناحية ساوثوورك . وكانت تمتـاز بطرقها الضيقة ، ودروبها المختلطة .

وقد خصصت البلدية ميدانا فسيحا هو ميدان ترنزو

للالعاب المسلية ، الى حيث يتوافد الناس لمشاهـدة الممثلين والمهرجين •

واقام المسؤولون فـي جهات متعـددة حانات كثيرة يقصدها طلاب اللهو لاجتساء الكؤوس ، او لتناول الطعام• كما اقيم فندق صغير يعرف بفندق تدكستر ، وكان صاحبه نيكولس رجلا اشتهر بالخوف مـن القانون ، فهـو يبتعد طاقته عن المشكلات التـي تفتح البـاب ليدخل منه رجال السلطة •

واستخدم في فندقه خادما يدعى جـو ، وهو صبي لا يتجاوز الخامسة عشرة ، وقد كلفه سيـده بجميع الاعمال ، وافرد له وكرا معتما في قبو الفندق لينام فيه • وكان الوكر يفضي الى الميدان الكبير •

واتفق في احدى ليالي ١٧٠٥ القارسة البرد ، ان مرّ انسان يتزيا بملابس البحـر فـي ذلـك الميدان ، فتـريث واصاخ •• فقد طرق سمعه صوت رجل يتكلم جهيرا ويحث الناس على شيء • وكان يرافق الصوت الجهوري ويتخلله ، اصوات لغط •

اصاخ صاحبنا واستطـاع ان يتلقف المعنـى ، كـان الرجل يقول : « ايهـا الناس ، جئتكم ، لانكم اعظم اهـل الارض طرا •• لانكم شعب يتشوف الابصار الـى التهام

غيره •• وهذا عمل جبـــار ، يشترط بصاحبه ان يكـون جبارا !

« تفوقتم على سائر الخلق فـي السياسة والكسب والتحكم بمصائر الشعـوب ، والتفنـن فـي سلب هـذه الشعوب •• ولست قاصدا القدح فيكم يا اهل لندن ، بـل استهدف مدحكم واعلاء شأنكم •

« انني حيوان ، بل وحش ! انني دبّ لا يقول الا ما يشعر به ، ولهذا أمجدكم واطريكم !

« انا دبّ ، ولكن حكمتي فائقة ، فأنا طبيب •• أجل طبيب ! وانا فيلسوف أعلم الحكمـة ، ولكن ، هـل اعلم حقيقة ما أعلمه للناس ؟ لا ادري !

« أنا طبيب وفيلسوف ، ابيع دوائي بأبخس الاثمان ، وابيع افكاري بلا اثمـان ، فانصتوا وارهفـوا السمع •• انظروا مليا الى وجهي والـى مسرحي ، سترون مخلوقـا مدهشا يضحك من لا يضحك •• ستضحكون وستبكون•• ستفكرون ، وستستغرقون في الفكر متى كلمتكم !

« والآن ، سأعرض عليكم أعضاء فرقتـي ••• نحن أربعة •• اتفقنا فيما بيننـا ان نلاشي شجـونكم ، ونزيـل همومكم !

« نحن اربعة ، اولنا ذئب مخلص ، يفهم اكثر منكم ، ويعلم ما لا تعلمون ، ويفلسف كما لا تفلسفـون •• وهـو

محتشم ، رزين ، متواضع •• هو كريم يجهل مخلب يــده اليمنى ما يجود به مخلب يده اليسرى •

« الثاني ، انسان شقّ فمه مــن الاذن الــى الاذن • انسان غدر به الانسان ، ولكنه ترعرع ليغدو نقطــة تحول بين الفرح والترح ، والضحك والبكاء !

« والثالث ، فتاة هيفاء غدر بهــا الدهر فسلبها نعمــة النظر •• ولكنها رغم احتجاب نــور عينيهــا ، بصيرة تعي وتفهم ! اننا جميعا مكفوفو البصر ــ فالشيخ ضرير ، لانــه لا يرى الا على ضوء الذهب •• والغني ضرير، لانه لا يبصر الدنيا كما خلقها ربها •• والمومس ضريرة ، لانها لا تــرى في المرآة غضون وجهها •• وانــا كفيلسوف اشدكم عمى ، لاني لا اعترف بجهلي •• ثم ، ان اللص ضرير ، لانه لا يرفع نظره الى السماء •• والخائن ضرير ، لانه يغمض عينيه متى مرّ به صادق شريف •• وكل من يتكلم معكم ضرير ، لانه لا يعترف بأنكم عمي صمّ لا ترون ولا تسمعون •

« نحن اذا سواسية في الحكمة والسفه ، في الابصار والعمى ، في العلم والجهل ، فــي البسالــة والنذالة ••• وفوقنا كلنا تستوي نور ــ او تعلمون من هي نــور ؟ انها العمياء المبصرة •• انها الحكيمة التــي لا تفوتها شاردة أو واردة ••• انها النور ولو كانت عيناها لا تبصران النور !

« أنا عالم افكر ، وطبيب أعالج وابرىء •• أنــا اديب

وشاعر ، لا اغضب او اثور ، بل أتقبـل الامور مهما شقت بحلم وصبر •

« اثقلت عليكم بكلام لا طائـل تحته ، فلننتقل الآن الى جو بهيج ينسيكم متاعبكم وغمومكم ! »

وصل البحار ، أو المتنكر في زيه ، وانثنى الى الفندق فولجه • ودخل الساحة الغاصة ، فوقف يتأمـل •• ورأى مركبة تنبسط امامها اخشاب مدعومة بركائـز ، وعليها وقف شيخ يتلفع باهاب دب ، والى جانبه ، وقف شاب خيل اليـه انه مقنع •• وفتاة عمياء •• وذئب حقيقي !

ودهش الرجل ، فصاح وكأنه وحيد : « رائـع ! فرقة مدهشة ، ظريفة ، طريفة ! »

كانت الفرقة قد وصلت الى لندن واتخذت لها مقـرا في ناحية ساوثوورك ، حيث كان مـن الطبيعي ان تستقر • فأصبحت شرفة الفندق بمثابـة القاعة التـي يحتشد فيهـا الجمهور •

واتفق مع صاحب الفندق عـلى الارباح والنفقات ، ووضع لافتة على الباب الكبير يدعو فيها الناس الى مشاهدة الرجل الضاحك ، والذئب العجيب ، والدب المتكلم • ثـم علق لافتة اخرى في مكان منخفض كتب عليهـا : شاهدوا مسرحية انتصـار الانسانيـة •• أعظـم مسرحيـة لاعظم فيلسوف ، لاعظم ممثل ••

وفي مكان وسط من الشرفة ، اقيم حاجزان ، وصف عدد من المقاعد الوثيرة ليحتلها الاشخاص المرموقون •

الا ان هؤلاء النبلاء لم يأتــوا ، وظلت المقاعد خاليــة خاوية •

وغصت الشرفة ، وكثر دخــل الفرقة ، ونضب تبعــا لذلك دخل الفرق الاخرى العاملة فــي تلــك الناحية • وما كان النجاح الذي حازته الفرقة الا انعكاسا لشهرة جونبلان•

وقد داخل الحسد قلوب اصحاب الفــرق الاخرى ، مما أرّث نار غيظهم وحقدهم على جونبلان •

واظب البحار على الحضور في كــل ليلة • كان يجلس بين الفقراء ، فيبدو برأسه المرتفع اعلى منهم وأرفع منهم •• كان يقبل على المشاهــد بحماسة منقطعــة النظير •• فيهتف للممثلين ، ويصفق بشدة ، ويلجأ الى العنف متى حاول احد منعه من الجلوس في مكانه المختار •

واظب البحار عــلى مشاهدة العرض ، وأصبح أكثر الناس عطفا على جونبلان ، وقد لاحظ ارسوس وجونبلان اقبال الرجل على مشاهدة الالعاب ، فارتاحا اليه ، واتخــذا منه صديقا وظهيرا ، مع انهما لم يتبادلا معه كلمة واحدة •

وحث الفضول أرسوس ذات ليلــة عــلى التحكــك بصاحب الفندق ، وسؤاله عن البحار • وقــد جــاءه فــي الاستراحة ، وقال له بتودد :

« من هذا الرجل يا نيكولس ؟ أتعرفه ؟ »
فأجابه نيكولس قائلا :
« نعم ، اني اعرفه » .
« من هو ؟ »
« بحار .. أما ترى ملابسه ؟ واسمه توم جيم جاك ! »

لم تتصل الفرقة بأي انسان رغم نجاحها الباهر ، بل لاذت بمركبتها لتوفر على نفسها متاعب الاختلاط ونكبات الانفتاح !

الا جونبلان .. فقد شذّ عن القاعدة ، وطفق يغادر المركبة بعد انتهاء التمثيل ، ليمشي ساعة ، فيفكر ويتنفس ملء رئتيه . وكان يقفل راجعا في منتصف الليل ، فيتأمل في كل شيء ، حتى اذا اطمأن الى ان المركبة سالمة والجماعة نائمة مطمئنة ، انتجع الفراش ، لتلم به الاحلام ، فيزوره طيف نور ، فيخاله ملاكا هابطا من السماء ...

اهاج اقباس الناس عوامل الغيرة في قلوب الكثيرين كما قلنا ، فحقدوا على الضاحك ، وودوا لو استطاعوا ابعاده ، ولو بالكيد والوقيعة .

بدأوا بحضور حفلات الفرقة لاحداث الضوضاء وتنفير الناس . واغتم ارسوس وجونبلان ، ولم يجدا في نفسيهما القدرة على مقاومة المخربين .

بيد ان الفرج جاء من باب آخر ، فقد لاحظنا بعد أيام

ان البحار أخذ يتصدى للمشاغبين بقسوة ، ولا يتردد عن منازلتهم ، فلجأ هؤلاء الى اسلوب آخر ، فشنوا حملة شعواء مستهدفين منها التأثير في رجال الحكم ورجال الدين •• فعاضدهم رجال الدين ، لانهم هم الآخرون ، لمسوا خطر أرسوس ، وايقنوا ان جونبلان شغل الناس عن دينهم •

ونسب الى ارسوس تهمة الشعوذة الملحدة ، ألصقت به فرية الكفر والزندقة •• واستفحل الخطب ، فقيل ان الرجل الساحر يقهر الحيوان ، وينطق الذئب ، ويحيل من الحجارة أشياء نابضة متحركة !

وحكم على أرسوس وجونبلان ونور وهومو بالموت حرقا ، هذا ما بدا في الجو ، وايقن منه اصحاب الملاعب الاخرى •

بيد ان للرأي العام سطوة ونفوذا ، ردعا رجال الدين واخافا رجال السلطة •• ومضت الايام واعداء ارسوس يتربصون به الدوائر •

واتفق في ليلة ، وجونبلان يجمع المال ، ان عثر على قطعة فضية مطبوعة برسم الملكة أنا •• وتمتم جونبلان بكلمة نقمة على الطبقة الحاكمة •

وسمع أرسوس الكلمة ، فانتحى به جانبا ، واوصاه بالحيطة والحذر ••

ولاشى تعاقب الايام خوف أرسوس ، وان لـم يقلع عن عادته في مراقبة الناس والاصغاء لما يقولون •

وبينما هو في يوم ينظر من نافذة المركبة ، اذ به يجفل ويفر اللون من وجهه •• وبسرعة أومأ الى جونبلان وهـو يقول : « اسرع ، انظر ، أما ترى ؟ »

فاجابه جونبلان بدهشة : « وماذا انظر ؟ »

« اما ترى الرجل المتشح بالملابس السوداء ؟ انه رجل رهيب يدعى الضابط الاسود •• انـه القانون ، وهو فوق القانون ! »

« ماذا يحمل في يده ؟ »

« العصا الحديدية ، ليمس بها من يشاء ! »

« ولو مسّ به من يشاء ؟ »

« يكون المسكين من الهالكين ! فمتـى لمسك بعصاه تضطر الى السير وراءه ! »

« الى اين ؟ »

« أنى لمثلي ان يعرف » •

« هذا امر عجيب » •

« وهو لا يتكلم ، فعصاه وحدها هي التي تنطق ! »

« وهل بلغ الظلم هذا الحدّ ؟ »

« انه عصرهم ، والعصا اقوى من الامة ! »

« واذا عصى انسان امر العصا ؟ »

« يكون مصيره الموت شنقا ! »

ومرّ الرجل الاسود بسلام ، فزال خوف أرسوس وقال : « لا أرجعك الله ! لا أراني وجهك ! لا أشعرني بعصاك ! »

***

جرى ما لم يكن في الحسبان ، ورأى الممثلون ذات ليلة بعض الناس في المكان المخصص للاشراف .

في تلك الليلة ، رفع الستار عن المشهد الاول لتمثيلية انتصار الانسانية ، ونظر أرسوس وجونبلان فشاهدا سيدة رفيعة القدر ، عظيمة الحسن ، أنيقة الملبس . ولاحظا ايضا ان الجمهور كان مأخوذا بمفاتن المرأة ، وان البحار توم جيم جاك كان اكثر الناس دهشة وتعجبا .

وكان يقف وراءها خادم نحيل العود يرتدي ثيابا من القطيفة ، ويضع على رأسه قلنسوة تبرز منها ريشات بيضاء .

واذكى وجودها نار الحماسة في قلوب الممثلين ، فبذلوا جهدهم في اداء ادوارهم . كما ان وجودها ألهب شعور المتفرجين ، فهتفوا وضحكوا ، وكان توم جيم جاك اكثرهم ضحكا !

وانتهى التمثيل ، فأطفئت الانوار ولاذ أرسوس

وجماعته بالمركبة ، حيث افرغ كيس النقود على المنضدة ، فأثار عجبه ليرة ذهبية تتدحرج ثم تسقط على الارض •

والتقطها الفيلسوف وقلبها بين يديه وهو يقول بنشوة المنتصر : « انه جنيه من الذهب ، وقد بذلته المرأة ولا شك، فسقيا لها ! »

وجاء صاحب الفندق في تلك الفينة ، وحسر ستار النافذة وهو يقول ويشير باصبعه : « انظروا ، ها هي السيدة •• انها أعظم شأنا مما ظننا ! »

ونظر ارسوس وجونبلان ، فشاهدا والعجب آخذ منهما ، عربة يحفّ بها الخدم ، ويتقدمها حاملا المشلعين !

وفغر الاثنان فميهما ، وتتبعا العربة بنظريهما • حتى اذا غابت عن العيان ، استدارا فواجها صاحب الفندق بنظرة متسائلة :

وقال الرجل وهو يضحك مسرورا : « انها اميرة ! »

وقال ارسوس : « اجل •• ونسيج وحدها ! »

وقال صاحب الفندق : « والاعجب من هذا كله ان رجلا مغمورا رافقها في العربة » •

وقال أرسوس : « ومن ترى الرجل ؟ »

قال : « سيتولاك العجب ، انه توم جيم جاك ! »

فصاح أرسوس : « اتقول الصدق ؟ أرافقها البحار ؟»

قال : « هذا ما قلت ، وأصر عليه » •

وكانت نور منتبذة ركنا من المركبة ، وقد انصرفت عن الجميع وأخذت تفكر بحبيبها ، فجونبلان استحوذ على تفكيرها وامتلك شغافها •• فلما سمعت كلامهم عن المرأة الفاتنة ، أنشأت تقول : « أما من طريقة نمنع بها السيدة عن المجيء ؟ »

والتفتوا اليها بدهشة ، ولم يجيبوها •

***

غريزة المرأة قوة عظيمة • وغريزة نور جعلتها تتلمس السلام وتطلب منع المرأة من المجيء •

داخل جونبلان قلق واضطراب ، ساعة رأى السيدة الرفيعة •• احسّ بنفسه تتجه الى السيدة المتناهية الحسن، وشعر انه اكتشف الحقيقة وعلمَ كيف تكون الانثى !

وتذكر كلام أرسوس عن الطبقة المترفة ؛ وطريقة حياتها • وصور له الخيال تلك الحياة في أبهى صورة ، فتاق الى تذوق حلاوة تلك الحياة •

ومثلت له المرأة بمحياها الوسيم واسنانها اللؤلؤية•• ومثلت له الحجرة التي تنام فيها ، فخفق قلبه !

مما هذا الاحساس المتدفق الذي يفيض من قلبه ؟

حاول ان يتخلص من افكاره ، وان ينأى بها عن المرأة الحسناء •• حاول ان ينام ، ولكنه قضى الليل مؤرقا !

واشتهى ــ والشهوة غريزة تنــام ، ولكنهــا تستفيق بغتة لتطالب بحقها ! اشتهى هذه المرأة ، وتقلب على فراشه وهو يتأوه ، لان شعوره اقنعه ان دون بلوغــه الوطر خرق القتاد .. ولكنه مع هذا ، فكــر ، وتاق ، واشتاق .. فهل يعشق حلما ؟ هل يعشق طيفا ؟ هل يعشق نجما ؟

وصاحت الديكة ، وخمدت مــع تبلج الفجــر النــار وتنازعه التيار بقوة ، تيار الغريزة ــ الظــلام يتعارك مــع النور ، والرذيلة تشتبك في صراع مع الفضيلة !

وصاحت الديكة ، وخمدت مــع تبليج الفجر النــار المندلعة ، وانتصر النور على الظلام .. ونام جونبلان .

ولم يفكر في الايام التالية الا بحبيبته نور .. حبيبته، ورفيقته ، ومسعدته !

لم تظهر تلك الحسناء مــرة ثانية ، فما عبىء ارسوس بغيبتها ، بل قال يوما في معرض الحديث: « انها ومضة برق شعت ثم اختفت ! »

واغتبطت نور وسرت ، فقد تلاشى الخطر الذي بــرز من الغيب في اهاب مزاحمة .

على ان توم جيم جاك انقطع عن المجيء هــو الآخر ، واقلق هذا التغيب بال ارسوس وجونبــلان ، وتساءلا عــن السبب ، وعن العلاقة التي تربط بين البحار الوضيع والسيدة العظيمة ! ولو قرأ ارسوس الصحف لعلم ان اللورد ديفيــد

قد نزح عن البلاد صدوعا بأمر الملكة ، التي عينته اميرا على البارجة المقلعة الى الاراضي المنخفضة ٠

لو كان يقرأ ، لادرك ان هناك صلـــة بين اللورد وبين توم جيم جاك ! بل لعلم ان الرجلين رجل واحد !

واما غير ذلك ، فقد زال الخطر الذي جسدتـــه مكائد اصحاب الملاهي ، فكفت الكنيسة عـــن ملاحقـــة الملحـــد ارسوس ، واستأنفت الفرقة نشاطها ، فجمعت المـــال ونالت الاعجاب ٠٠ واقبل عليهـــا ذوو الجـــاه واليسار زرافـــات زرافات ٠٠ وقد جاء الكثيرون منهم متنكرين مستخفين !

***

انتهى التمثيل وقد انقضى من الليل قطع كبير ، وغادر جونبلان المركبة في جولتـــه ٠٠ وكان السكـــون مخيما ، والنسيم عليلا منعشا ٠٠ فطابت نفسه ، واطمأنت روحـــه ، فمشى مرتاح البال يفكر بنجاحه وحبه ٠

وبينما هو في حالته تلـــك ، شعـــر بشيء يوضع بين يديه ٠ فوقف مذعورا ، ثـــم التفت ٠٠ ورأى امامـــه رجلا صغير السن ربع القامة يضع على رأسه قلنسوة تبـــرز منها ريشات بيض ٠

وتذكره جونبلان ٠٠ تذكر انه خادم تلـــك السيدة ٠ وابتدره الخادم قائلا :

« اذهب في الغداة ، في مثل هذه الساعة الى جسر لندن حيث تجدني في انتظارك ! »

فقال جونبلان مشدوها : « وماذا تطلب ؟ »

قال : « سأصحبك الى شخص ما ! »

واختفى الرجل في احشاء الظلام ٠ ونظر جونبلان الى الورقة ، ثم اثنى راجعا ٠

وهناك قرأ ما فيها ، فخيل اليه انها كلمات خطها مجنون ، أو انه مجنون يقرأ ما لم يكتب ٠

قرأ جونبلان هذه الكلمات :

« ما أبشعك ، وما أجملني ! انت ضحاك وانا دوقة ! انت من الدهماء وانا من الصفوة ! ومع ذلك فأنا أحبك وأشتهيك ، وسأنتظر مجيئك غدا ! »

وحملق جونبلان غير مصدق ٠ اترسل الحسناء البارعة الجمال في طلبه ؟ أتشتهي رجلا مثله ؟ ألا يكون ناقص العقل لو ذهب ؟ أليس كاتب الرقعة ماجنا ؟ ام هو مجنون ؟! »

١١

الرجـل الرهيب

أيقن جونبلان للوهلة الاولى انه مخبول ، والا فكيف يعتقد ان الرقعة كتبتها امرأة رفيعة الشأن !

غير انها رقعة دبجتها يد امرأة ، وها هو عنوانها يـدل عليها • وما برح يتلو الرقعة حتى استيقظت غريزته ، واحس بأنه فقد صبره •

انه لامر مدهش ، فكيف يقـع هـذا ؟ كيف تشتهيه غادة فاتنة وتطلب اليه ان يلتقيها ؟

ورآها بعين خياله متلفعة بغلالة بيضاء تشف عن حسن باهر ، وتقاطيع شهية •

انها لاعجوبة ، والا لما نزلت الى الهوة السحيقة التي يعيش في قلبها ••• هو القبيح المشوه •

ارتعش جونبلان ، وشعر بضميره يتقهقر مستخذيا •• شعر ان للشهوة جنودا تمهد لها الطريق •• شعر ان الهـوة سلاحا لا يقوى الضمير الاعزل على مقاومته •

وتفتحت عيناه ، ونشب في قلبه قتال بين الشهوة والعفة .. واستقرت في الجسد نار أكالة .. لقد تبدل كل شيء !

فكر بنور فأوشك على البكاء ، ونظر الى الساعة ، فاذا هي تجاوز الثانية صباحا ، فوضع الرقعة في جيبه ودلف الى حيث ينام الخادم جو . ثم عاد أدراجه فأوصد باب الفندق ، وصعد الى المركبة واستلقى على فراشه .

أغمض عينيه ، فأجفل النوم .. حاول أن يستسلم للرقاد فجفا الوسن مقلتيه . ومضى الوقت وهو مضطرب ، يضرب أخماسا لاسداس ، ويضل في تيه من الفكر .

وظهر الخيط الابيض من الخيط الاسود ، وفكره ما زال أسود مظلما . وتنحنح ارسوس وغادر فراشه ، فلم يتحرك جونبلان ، الا ان ارسوس قال مستفهما : « ما بالك يا جونبلان ؟ انهض ! » .

وتململ جونبلان ، ثم استوى جالسا ، وأجال طرفه في المكان ، وكأنه يراه لاول مرة ، وشاهد نور تدنو منه ، فرماها بنظرة من يستوحش من شخص .

ووقفت واصاخت ، لتسمع من حبيبها تحية الصباح ، ولكنه رنا بنظرة المتعب الى الوجه الملائكي .. وأحس في تلك اللحظة بثقل مريع يرتفع عن صدره ، وبالظلام الحالك ينجاب وينحسر .

الخير انتصر في قــرارة نفسه •• الضمير استيقظ ••
ورأى في العمياء ما بدد شكوكه وهمومه •

العمياء التي شق اسمها مــن النور تطــل عليه مــن
عليائها ، فتنجيه من أفكاره السوداء •

ونظر الى الطهر المجسم فـــي العينــين المكفوفتين ،
وسقطت على خده دمعة تحمل من المعاني مـــا لا تحملــه
المجلدات !

***

اغتبط جونبلان لانتصار الخير على الشر في قلبــه ،
فنهض مستبشرا منشرح الصدر ، وما هو الا قليــل حتــى
جلسوا الى مائدة الافطار الصغيرة •

وانتهز جونبلان الفرصة فأدنى رقعة الغرام مــن لهب
المصباح ، فاحترقت واحترق معهــا خيــال الحسناء التــي
أرسلتها •

واشتمت نور رائحة الاحتراق فقالت متسائلة : « مــا
الذي يحترق ؟ » •

وقال جونبلان : « ورقة بيضاء ، فلا تفزعي ! » •

لم يتسرب الشك الى قلبها ، وافتر ثغرها عن بسمــة
وضيئة ، وجاراها جونبلان فابتسم •• لقد تحرر من القيود ،
ولا يغله الى عجلة الحب الا قيد نور !

وتحدث المحبان حديث القلوب ، وأصغى ارسوس في صمت واطراق للحبيبين المسترسلين في مطارحة بريئة •

وقالت نور وكأنها تناجي نفسها :

« أنت حياتي ونور عيني •• أنت القوة التي تحبب الي الحياة •• أنت نبراسي •• أخاف أحيانا ، فيبدد خيالك خوفي ، ويلاشي همي وغمي ! » •

وقال يجيبها بصوت ينطق بالصدق والاخلاص :

« نور ! أنت المعنى الخالد لي •• أنت السلوى والسلام ؟ » •

وتنحنح ارسوس وقال وكأنه يؤنب العاشقين :

« أنتما تحبان بعضكما بعضا اذا ••• ألا تعلمان ان السعادة أحيانا جريمة ؟ الا فاعلما ان السعيد متى كشف عن مشاعره يتيح للشر بابا موصدا ؟ وهذا الحب الذي انشدتما نشيده ، خيال يجسمه الوهم ••• أما أنا ، فما انا حارس حبكما ، فاغربا عن وجهي •• لا تسمعاني من هرائكما ولغوكما ما يزيدني برما وضيقا ! » •

ولكن الشيخ أدرك مما ارتسم على وجه الحبيبين ، أنهما أخذا كلامه مأخذ الهزل ، فسارع يعقب وهو يقطب :

« أنا لا أفكه ، بل أقول ما ينبغي ان أقول ! » •

وابتدرته نور : « ما بالك تنحي علينا باللائمة يا أبي ؟ » •

قال : « لانكما متهوران تظنان الدنيا طيعة سهلة القياد .. واعلمي ، واعلم ، ان على الانسان ان يتحفظ في اعلان سعادته ! » .

وقال جونبلان وهو يقف : « أصبت يا أبي ، فما من فرح الا ويعقبه ترح ، وما من سعادة الا ويليها شقاء ! » .

وهدر صوت هومو الذئب ، فانحنى ارسوس عليه بعطف ، وقال : « انت مثلي يا عزيزي ــ حكيم تتوخى السلامة » .

غير ان الذئب زمجر بصوت مرتفع ، فعجب ارسوس، وحاول ان يسترضيه . وزمجر هومو للمرة الثالثة ، ثم نهض وتقدم من الباب .

وهم ارسوس بالنهوض ليرى ان كان في الخارج أحد، ولكنه جمد في مكانه وهو جاحظ العينين ، يحدق بذهول الى رجل يقف بلا حراك !

كان الرجل متشحا بالسواد ، ويغطي رأسه بالشعر المستعار ، ويرفع بيده عصا من حديد .

وتقدم الرجل ، وردد ارسوس اسمه :

« الضابط الاسود .. الضابط الاسود .. » .

واقشعر جسد جونبلان ، لقد استعاد الى الذاكرة حديث ارسوس عن هذا الشيطان المريد ، واوشك ان يصرخ هلعا .

وتبع صاحب الفندق وهو يتعثر من شدة الخوف الضابط الاسود ، ورفع الضابط عصاه فمس بها كتف جونبلان ، ثم أومأ اليه ان يتبعه .

طاشت سهام جونبلان ، وأيقن من الهلاك .. أدرك كل شيء ، وشعر باللهفة والمضض .. فالعصا الملعونة لا تقبل رفضا او تمردا !

حاول ان يمتثل ، ولكنه أحس بالوهن .. كانت الصدمة قاتلة ، فالرجل الاسود يأمره ، وعليه ان يطيع .

جن جنون أرسوس ، وقد شعر بالنهاية المروعة ، لقد ألمت الطامة الكبرى .

وشخص جونبلان الى الضابط الاسود ، ودنا هذا منه وقبض على رسغه بطريقة يعلم منها الناس انه لا يطلب الا تلك الضحية !

وبسرعة استدار الرجل المخيف ومشى ببطء دون ان يلتفت الى الوراء .

نظر جونبلان الى أرسوس متوسلا ، ولكن الاخير هز رأسه ثم نكسه ، وكأنه يقول : « كلا يا جونبلان لا تتمرد ، لا تقل لنور شيئا ، بل اتبعه على الفور ! » .

والتفت الشاب الى محبوبته والاسى منطبع على أمائره ، ودمعت عيناه، فانحنى عليها، وكأنه يرغب في تقبيلها قبلة الوداع الاخيرة !

الا ان أرسوس حال بينه وبين نور ، وهمس في أذنه :

« لذ بالصمت ! لا تتكلم قبل ان يطلب الاستجواب منك ان تتكلم ! » •

ورنا جونبلان الى نور بعين محبة حزينة ومضى وراء الرجل الاسود •• أخذ يقفو اثره ، كأن فيه جاذبا يجره وراءه فلا يجد محيصا عن ذلك !

واصل الضابط الاسود تقدمه ، لا يتريث ، شأن الواثق من نفسه ، المطمئن الى ان ضحيته ألزم له من ظله •

ابتعدا عن الفندق ، وغذا السير في أرض خلاء ، حتى اذا وصلا الى الطريق المعبدة ، رأى جونبلان ثلة من الجنود في انتظارهما ، ورأى جمهورا من المستطلعين جمعهم الفضول في مكان واحد قريب من الجنود •

داخل حسه ان نهايته أزفت ، وان أجله حم •• فزفر زفرة مكلوم مكروب ، وفكر بنور وبأرسوس ، وقال يحدث نفسه : « رباه ! هب لي القوة والايمان ، حتى أصمد أمام أعدائي ، وأخرج بريئا طاهر الذيل ••• رباه رباه ! » •

أحاط به الجنود احاطة السوار بالمعصم ، وأشار اليه آمرهم ، فمشى مرفوع الرأس شامخ الانف •• مشى وفي صدره عواطف وأحاسيس تختلج متضاربة متصارعة !

ومشى الضابط الاسود في المقدمـة ، بخطى ثابتـة يضرب بها الارض بوقع قوي رتيب .

مشى الضابط الرهيب ، ومشى وراءه جونبـلاز — ذاك يفكر ولا يعلم احد مـدى فكره ... وهـذا يفكر ، وكلنا نعلم محور فكره !

١٢

النكلـــة

أرسوس حكيم ، ولو كان مهرجا ومشعوذا وساحرا ! علمته الدنيا حكمة خالــدة خلود الانسان والزمــان والسموات !

قال لجونبلان منذ ساعة : « السعادة تنقلب شر منقلب فتمسي شقاء وتعسا •• قالها بكلمات أخرى •• وقلب الدهر لجونبلان ظهر المجن ، وانتزعه الضابط الاسود انتزاعا مــن محبيــه ! » •

هبط ارسوس من المركبة ، وتبع جونبلان بعد ان نبه الجميع الى كتمان الامر عن نور •

كان مؤمنا ان الامر تافه •• ولكي يستوثق من تأويله رأى ان يتبع الموكب ليعلم مقصده •• فلو اتجــه الضابــط الاسود الى ناحية اليمين فمعنى ذلك ان المسألة خطيرة ؛ وان جونبلان متعرض لاسوأ الامور • ففي تلــك الناحية أمكنة يرتعش لذكرها أشجع الشجعان ــ فيهــا سراديب مظلمــة

يساق اليها الضحية ، وتختفي آثاره الى الابد !

واذا اثنى الى الشمال ، هان الامــر ، لانــه يكون قاصدا دار العدل التي يجري فيها محاكمة اشخاص ارتكبوا المخالفات التافهة .

ووصل الموكب الى مفرق الطريقين ، ومــال الضابط الى اليمين ، فأغمض ارسوس عينيه حتى لا يبصر تلك النقمة الرهيبة !

ومادت الارض تحت قدميه ... لقد ضاع جونبلان ، وانتهت حياته وحياة الاسرة كلها !

وواصل الموكب تقدمه بين البيوت المتداعية . وتريث الضابط في مكان خال من المنازل ، ثم اتجه الى بناء أسواره مرتفعة ، ونوافذه مشبكة بقضبان الحديد ، وبابه الحديدي يعلوه الصدأ .

وقف الموكب ، وطرق الضابط الباب ، وراقب ارسوس ما يجري من مكمنه ، وفتحت الكوة التي تعلو الباب ، وقال الضابــط :

« افتحوا ... فأنا آت بمهمة ملكية » .

وصر الباب ، وفتح . ودخل الجند بجونبلان .

هذا هو سجن باثوورك الرهيب ، كان سجنا متسعا ، وله بابان ، واحدهما الذي ادخل منـــه جونبلان ، وهــو « مدخل العقاب » .. ولا يلجه الا من يخرج منــه محمولا

في نعش ، لان مقبرة السجن كانت تقع في مكان قريب منه لا يفصلها عنه سوى الطريق •

اما الباب الخلفي ، فهـو البـاب الرئيسي المخصص للموظفين والقضاة والمحققين •

طفق جونبلان يتساءل عن الجريمة التي اقترفها ، وعن القصاص الذي ينتظره ، واكتنفه ظـلام دامس ـ فالمكـان الذي مر فيه لا تضيئه نافذة او مصباح •• وقد علـم انـه يمشي في دهليز •

ولما اعتاد الظلام ، تسنى لـه رؤيـة بعض الاشياء ، وتكوين فكرة عن الدهليز الذي يعبره •

وهاله الامر ـ ففي لمحة فقـد حريتـه وشخصيته ! أدرك ان قوة قاهرة تسلطت على قوته لتنكل به !

وفكر بأرسوس وبكلماته •• فكر بنـور وبهومو •• وبرم بالصمت ، فهتف بصوت مبحوح :

« ماذا دهاكم ؟ والى أين ؟ » •

فلم يسمع غير الصدى •• فتأوه ! ولكنه تجلد واستمر يمشي •

وأحس بالجوع ، وجف حلقه ، فرغب في جرعة ماء ، غير انه تمالك نفسه فعض على شفتيه ولم يتكلم !

***

استطاع جونبلان وهو يقطع الدهليز الطويل ان يرى فتحات ضيقة مشبكة تقوم على الجانبين •• كما شاهد في الزنزانات المنخفضة سلالم ترتفع الى أعلى •

واجتاز ثلاثة أبواب ، ثم انحدر الى منخفض ، فتساقطت على رأسه قطرات الماء ، وشعر بالاختناق •

وتوقف الجنود ، وطرق الضابط على باب من الحديد، فارتفع الباب ، وكأنه يغيب في السقف ، وظهر من الداخل ضوء مصباح وأغمض جونبلان عينيه ، وندت من صدره صرخة فزع •••

رأى ما سلبه رشده •• رأى درجا حجريا ينحدر أفقيا الى وكر دائري نتأت جدرانه بالحجارة ، وامتلأ السقف بالعناكب •

ودفعوا جونبلان دفعا الى الداخل ، فرأى المصباح الذي ينير القبو •• وقيد لحظه انسان عري من ثيابه ، وطرح على الارض وسط الاعمدة التي يقوم عليها السقف •

كان الرجل المنطرح ساكن الحركة ملطخا بالدم •• كان مشدودا بأغلال الى الاعمدة •• ورجلاه ويداه مقيدتين •

انسان نكل به حتى اصطبغ بدمه ، وانتثر لحمه • وشعر جونبلان بسوء المآل ، وضيعة الآمال ، وفكر بنور

فسحّت دموعه •

ونقل طرفه ، فشاهد رجلا متلفعا بعباءة حمراء ، يقتعد كرسيا •• وعن يمينه وشماله رأى رجلين متشحين بالسواد•

واعجب ما استرعى انتباهــه وردة كبيرة يمسك بهــا الرجل الاحمر ــ وهو قاضي الناحية ــ وكانت العادة المتبعة ان يمسك القاضي بوردة عندما ينزل النكلــة بالمجرم ! كما جرت العادة ان يشهد عملية العقاب ، الطبيب ورجل القانون ــ وهما الرجــلان المتشحان بالسواد •• وكذلــك كاتــب المحكمة •• وقد جلس وأمامه أوراقه •

ورأى جونبلان أيضا ، رجلا مشتملا جلــد حيوان ، فأيقن أنه الجلاد •

وربت كتفه انسان ، فالتفت مذعورا ، فرأى الضابط الاسود يومىء اليه ان ينزل فصدع بالامر وهبط الــدرج ، ووراءه الضابط •

تلاشى كل أمل في صدره ، فمصيره ولا غــرو كمصير الرجل الذي كان يئن أنينا موجعا ، والدم ينبثق من فمه •

ودعاه القاضي باسمه قائلا :

« جونبلان ••• تقدم ! » •

فلم يحرك جونبلان ساكنا ، الا ان الضابــط الاسود همس في اذنه ، فامتثل ودنا من القاضي •• واقشعر بدنه ، فقد تبين ملامح الرجل المعــذب •• رأى جسده الدامــي ،

ويديه وساقيه •• ورأى فوق صدره كتلة من الحديد تعلوها الحجارة !

ونظر القاضي الى جونبلان ، وما لبث ان هز عصاه وضرب بها الارض ، ولوح بالوردة ، وأنشأ يقول :

« ارحم نفسك أيها المجرم ، وأصغ لكلمة العدل •• انت أيها المجرم ، اوقعتك نفسك الحوباء في ما نهى عنه القانون ، مما يعتبر شقا لعصا الطاعة ، وافتراقا عن ركب الناس ، وابتعادا عن الولاء للمليكة ! فان تماديت في صلفك ، أصابك اضعاف ما نزل بساحتك •• ان على صدرك حجرا لا يرتفع ما لم تعترف •• وستبقى في مكانك هنا لتموت موتا بطيئا •• فاقلع عن عنادك وقل ما يريح ضميرك وينهي عذابك •• وسنكتفي حينذاك بشنقك ، بعد ان نقيتك ونقدم الماء لك ! » •

وصمت القاضي •• ولكن المعذب لم ينطق ، فاستأنف : « ويحك أيها المنكود ! تكلم ! انقذ نفسك الخاثرة ! » •

ولما لم يحرك الرجل ساكنا ، التفت القاضي الى الطبيب وأمره أن يجري عليه الفحص •

فامتثل الطبيب وجس نبضه ، وتحسس جبينه ، ثم قال يخاطب القاضي : « انه حي ، وفي وسعه ان يتكلم ! »•
وانتصب القاضي واقفا وقال بصوت مفعم بالتهديد :

« أيها المعذب . انني ذو سلطة عظيمة ، فـلا تضطرني الـى اتيان ما تعافه روحي ؟ فتكلم .. ولا تحكم عـلى جسدك بهذا العذاب الهائل ! قل أيها المعذب .. أتعرف هذا الرجل الماثل أمامك ؟ » .

لم يتحرك الرجل . والتفت القاضي الـى الضابـط الاسود وقال :

« دع الرجل يرفع قبعته عن رأسه » .

فأحنى الضابط هامته احتراما ، وأمر جونبلان ، فخلع غطاء رأسه ... وبدا وجهه ... وظهرت ضحكته !

ووقع نظر السجين على وجه جونبلان ، فارتعد جسده واختلجت أهدابه ، وما لبث ان أشاح وهو يغمغم :

« انه هو ! هو ! » .

وأتبع كلماته بقهقهة مدوية ، وأمـر القاضي كاتبه ان يسطر ما رآه وسمعه .

أما جونبلان ، فقد مادت الارض تحت قدميه ، واستبد به الهلع ، واستطاع ان يتكلم أخيرا ، فقال :

« انه كاذب ! فأنا لم أره الا اليوم ، هنـا ، الآن ... يجب ان أعود ، فأسرتي تنتظرني بنفوس والهة .. أطلقـوا سراحي ، أنا بريء ! » .

وأجهش ، وكاد يبكي ، على أنه تابع يقول :

« أما ترون الشقاء المرتسم على صفحـة وجهـي ؟

والتشويه الابدي في فمي؟ وهل يسعني الا اضحاك الناس؟ فلم اذا تزمعون أن تهلكوني ؟ أنا الضحاك ، والكل يشهد باستقامتي ! لست ممن يزجون بأنوفهم في ما لا يعنيهم •• أنا بائس ، فارأفوا بي ••• » •

وقاطعه القاضي وهو ينحني باحترام : « أنت رجل خطير الشأن . انت اللورد فيرمان كلانشار •• البارون كلانشار •• المركيز •• عضو مجلس اللوردات ! »

فغر جونبلان فاه ، ونظر الى القاضي وهو يظنه متهكما به ساخرا منه •

ولكن القاضي أمسكه من ذراعه ، وقال بلهفة تنضح بالتبجيل :

« أبقيناك طويلا هنا ، فاجلس أرجوك على مقعدي » •

ايقن جونبلان انه لا يحلم عندما تقدم منه الضابط الاسود وقاده برفق الى المقعد ، ثم وقف وراءه هو والطبيب •

وأحنى القاضي رأسه ، وتناول اوراقا تعلوها رقعة من جلد ، فتصفحها ؛ وأنشأ يقرأ فيها ، قال :

« أنا الذي اخط هذه الكلمات ، صادق ، لانني في حضرة الموت •• انها ليلة دامسة الجلباب من ليالي يناير عام ١٦٩٠ المقرورة • في هذه الليلة تركنا طفلا بريئا على ساحل بورتلاند •

« تركناه يموت • وكان الملك جيمس الثاني قـد أمر ببيعه في سوق النخاسة وهو فـي الثانية من عمره اسم هذا المسكين اللورد فيرمان كلانشار •• انـه وحيـد اللـورد كلانشار عضو مجلس اللوردات ، من امرأته آن برادشو ، وهو وارثه الاوحد •

« وقد رؤي ان يشوه ويباع ، لتزول صفته ، وتضيع شخصيته •• ولا شك انه سيلاقي حتفه !

« أنا الرجل الذي اشتراه •• اشتريته بعشرة جنيهات ، وشوه وجهه من اسمه هاركنون •• وقد اسميناه جونبلان •• ولا يعرف السر الا هاركنون •• واذا قدر له البقـاء ، فهو الوحيد الذي يعرفه •• انه في السجن ــ سجن شاتام ــ حيث زج به الملك وليم الثالث بتهمة النخاسة ، وبيع الاطفال بعد خطفهم •

« ها هم رفاقي في الشر يشهدون ويوقعون على صحة ما سردته ، ويعترفون انهم احتفظوا بالطفل ثمانيـة أعوام ، واستغلوا تشويهه استغلالا شائنا •

« هربنا من انكلترا بعد ان تركنا الغـلام •• ولكننا لن ننجو ، فالبحر يوشك ان يبتلعنا •

« البحر هائج ، والنوء رهيب •• فالقدر سلط علينـا سيفه ! اننا نجثو الآن ، وابتهالاتنا تتصاعد مـن أفواهنـا وقلوبنا ••• الله انقذنا من المصير الرهيب ــ اننـا نادمون

سادمون ! لقد سجلنا اعترافنا ، وسنقذف به الى الماء في زجاجة ، فمن يعلم ؟ قد يرجع الحق المغتصب الى صاحبه !

وانا اذ نوقع بأسمائنا ، نشهد اننا تفهمنا ما كتب فيه، وهو الصدق ، والله شهيد ! » .

ولما قرأ القاضي أسماء الموقعين ، أردف يقول :

« وسأقرأ أيها اللورد نبذة ملحقة كتبها الرجل :

الرجال يموتون ، يغرقون بلا كفاح .. كتبت الاعتراف على الرقعة نفسها التي أمرنا الملك بها ان نشتري الطفل !

***

كان جونبلان يصغي بذهول ، ويستعيد في ذاكرته مشاهد بعيدة طوتها السنون ، ولما تلا القاضي اسماء الموقعين ، تذكر الاسماء ، وتذكر أصحابها ، وانبرى يقول :

« أجل ، أتذكر الاسماء والاشخاص ، فكاتب الرقعة كان اسمه الاستاذ ، وهو شيخ يسترسل في الحزن .. كما أذكر زجاجة سوداء نقش عليها بالاحمر اسم انسان » .

فقال القاضي : « أصبت ، والزجاجة معي ... انظر ! وقد عثر عليها مختومة .. وهكذا شاءت العناية الالهية ان تحتفظ بالقيم الانسانية ! » .

والتفت بعد قليل الى الرجل المتضور وقال :

« والآن ما قولك ؟ أتبقى مصرا على الانكار ؟ » •

وتململ المجرم ، ثم فتح عينيه ، وتأوه ، وقال :

« لا جدوى من التشبث بالانكار ، فالله شاء ان ينكشف المخفي ، وسأتكلم •• الملوم هو الملك •• وأنا كنت آلة طيعة في يده ! » •

وركز نظره على وجه جونبلان ، وأغرب في الضحك ، وهو أثناء ذلك يقول : « أنا أضحك لانك ما زلت تضحك منذ سنين •• وستستمر في الضحك ! » •

واستغرق ثانية في قهقهة طويلة ، ثم أطبق فمه ، وأغمض عينيه ••

ومضت دقيقة والصمت مخيم ، ولكن القاضي قطعه بقوله : « أيها المجرم ، يا هاركنون ! لقد اهتديت بعد ضلال ، فوفرت على نفسك مزيدا من العذاب •• اعترفت بعد انكار ، ووافقت على ما جاء في رقعة الجلد ، لهذا فأنا أرفع عنك سوط العذاب ، وأحولك الى الجلاد ، لينهي أمرك بالشنق ! » •

وأومأ القاضي الى الجلاد ، فأزال هذا الحجر عن صدره ، ورفع الاغلال والاصفاد ، ولكن الرجل لم يأت بحركة • وأجرى الطبيب الفحص عليه ، ولم يلبث ان قال :

« انه ميت •• لفظ أنفاسه مع الضحك ! » •

والتفت القاضي الى الضابط الاسود ، وأسمه ان [illegible]

الجثة الى مقبرة السجن •

وعاد القاضي الى عصاه ، فرفعها ، ثم مدها الى الامام وهو يقول بعظمة من يمثل القانون :

« أنا القاضي ، حامي العدالة ، بأمر الملكة والشعب ، أصرح أنك يا سيدي ، انك اللورد فيرمان كلانشار ، عضو مجلس اللوردات ! » •

وأحنى هامته ، وحذا الآخرون حذوه !

واتسعت حدقتا جونبلان ، فلمس جبينه بيده ، وقال :

« أفي حلم انا ؟ أأنتم سكارى ؟ » •

وتناهى اليه صوت عميق يقول : « أنا هنا يا سيدي ، فقر عينا ! » •

وتقدم باركفلد ، الجاسوس • وكان قد شعر ان الدقيقة الحاسمة أزفت ، فبرز ليؤدي دوره ، وليجني ثمار غرسه !

واستتلى باركفلد : « أجل ، أنا هنا •• كنت يا سيدي نسيا منسيا ، وحان الآن لك ان تسترد ما حرمته من الحقوق ••• فأنت لست جونبلان المهرج ، بل اللورد كلانشار ! » •

فقال جونبلان : « ماذا تقول ؟ ومن أنت ؟ » •

قال : « أنا باركفلد ، ولقبي فاتح قناني البحر •• والبحر قذف بالزجاجة ، فلما فتحتها وجدت الرقعة ، فقرأتها مع الشهود ، وسارعنا الى اثبات الحقيقة ! » •

وصمت وهو يتفرس في أمائر جونبلان ، ثم استتلى :

« وحينما دعتني الملكة ، سردت عليها قصة القنينـة ، فأمرتني ان أجري باسمها ما يقتضيه العدل ، على أن أتحرى الاخلاص في مهمتي .. وهكذا قمت بواجبي وانتهيت الى النتيجة التي رأيت .. لقد انتصر الحق أخـيرا ، وانجابت الغمامة عن سماء حياتك .. انت مثر عريض الجـاه ، دخلك يربي على الاربعين ألفا من الجنيهات الذهبيـة .. ولـك مقعدك السامي في مجلس اللوردات ، ومكانك في محفـل القضاة والمشرعين .. ولك فوق هـذا وذاك حـق الاقتران بأنبل امرأة ، بأميرة ، بدوقة .. بكريمة ملك ! » .

وانهارت أعصاب جونبلان .. في مثـل غمضة عـين وفتحتها يتحول من مهرج الى نبيل !

جونبلان .... جونبلان ...

ودارت الدنيا في عينيه .. وترنح .. ثم سقط مغشيا عليـه !

١٣

شهوة باركفلد

قنينة تائهة في الخضم اماطت اللثام عن سر دفين !

ولما تجمعت الحقائق والادلـــة ، سجل رئيس مجلس اللوردات الواقعة التالية :

« بعد التدقيق والتقصي ، تبين لنـــا ، نحـــن أعضاء مجلس اللوردات ، ان سليل أحد اخواننا خطفته يد آثمـــة وهو طفل ، وشوهت وجهه ، وانه الآن يعمـــل مهرجـــا وضحاكا ، ويدعى جونبلان . فمجلس اللوردات قـــرر ان يشير على الملكة باعادة الامر الـــى نصابـــه ، فتأمـــر بجلب جونبلان ، وخلع لقب اللورد عليه ، ووضع أموالـــه فـــي تصرفه ، على ان تتاح لهاركنون المجـــرم المحكوم رؤيتـــه ، وعلى ان يتعرف عليه فعلا ، ويعترف بأنه الطفـــل الـــذي اختطف وشوه » .

أعملت الملكة الفكر — ان شقيقتها الدوقة جوشيانا لا تزال بلا زواج ، والاملاك والاموال التي أغدقت عليها هي

املاك واموال كلانشار ، فمتى حرمت منها شقيقتها ، غـدت فقيرة لا تملك شيئـا ، وهي ولا غـرو تحـب شقيقتها ! فلتتزوج بجونبلاد ، بذلك تحتفظ بعزها !

وقهقهت الملكة ـ أجـل ، لتتزوج شقيقتها الفاتنـة بالمشوه المخيف ، ففي ذلك ترفيه وتسلية لها ، وفيه أيضـا اشباع لنقمتها على شقيقتها !

الملكة طيبة القلب ، ولكنها لـم تتجـرد مـن روح التشفي •• وهي تحب شقيقتهـا وتحسدها وتشعر بالغيرة منها •• هي لا تشاء ان تراها مملقة ، ولكنها كذلك لا تشاء ان تراها رافلة بثوب قشيب من السعادة !

وأخذ باركفلد عـلى عاتقه وضع الترتيبات اللازمـة لرجوع اللقب الى صاحبه ، فأضفى طابـع السريـة عـلى الموضوع ، وتكتم حتى لا يهدم أمله في طعن الدوقة تلـك الطعنة النجلاء ! وانهمك في حبك خيوط مكيدته ، والسرور مستحوذ على مشاعره •

وشاءت الملكة ان تبعد اللورد عن البلاد ، فأمرتـه ان يسافر ، فصدع بالامر ، وبقيت خطيبته الدوقة فـي لندن ، ولكنها أحست في غيبته أنها فقدت عنصرا هامـا من عناصر قوتهـا •

وشاءت الملكة ان تسترسل في عبثها ، وتتمادى فـي لعبتها ، وجاء اعتراف الدولة باللورد كلانشار تهديدا مباشرا

للدوقة واللورد ديفيد ، لان أموالهما هي اموال كلانشار ، انتزعت منه وحولت الى الاثنين ، شرط ان يتزوجا •

اما باركفلد فقد اثمله ما ينتظر الدوقة •• فقد سنحت الفرصة للخسيس ناكر الجميل ، فدبر الامور ، وحبك الخيوط ، وأيقن من الفوز •

وقد علم ان الرجل الضاحك مقامه في فندق تدكستر ، فأهرع الى الفندق ، ورأى ، وتأكد ان سهمه أصاب الهدف!

انه وجد اللورد كلانشار ، وبذلك حكم على اللورد ديفيد والدوقة بالفقر والمتربة •

وضحك كما يضحك الشيطان بعد عودته من الفندق ، واستلقى على الاريكة وهو يقهقه •• ثم أغمض عينيه وغفا ، وحلم ••• لم يحلم بالمال ، بل بالدوقة تبكي وتسكب الدمع ، وقد تعفر جبينها وانكسر خاطرها •

وهو متى انتقم ، وطوق عنق جونبلان بمعروف ، سيكون حتما معروفا يكلفه غاليا •• سيستولي على ارادة هذا المهرج الغبي ، ويبتز منه المال ، ويعيش سعيدا هانئا !

***

جرت الامور كما يشتهي المقبوح الفاجر • فاعترف هاركنون ، وأرسلت الملكة من قصرها رسولا خاصا يستدعي الدوقة جوشيانا ، فراودتها كبرياؤها على اهمال

أمر الملكة ، الا انها آثرت ألا تشعل نـار الغيـظ في قلب أختها !

استقلت جوشيانا مركبتها وانطلقت الى قصر وندسنور، وكان هذا عندما اتى الضابـط الاسود بجونبلان الـى السجن •

وتمت الامور حسب الخطة ، فقد قيل للدوقة ان الملكة عاكفة على تصريف اعمال الدولة ، وستستقبلها في اليـوم التالي •

وعلمت في اليوم التالي ان اللورد ديفيد قفل راجعا ، امتثالا لامر الملكة ، فعجبت وتولتهـا الدهشة ، وأيقنت ان الملكة تعد العدة لمفاجأة لن تكون سارة •

***

عاد جونبلان الى رشده ، فوجد نفسه فـي حجـرة فسيحة تفرش أرضها قطع السجاد الثمين ، وتكسو جدرانها وسقفها سجف وستائر من القطيفة والمخمل ، وعلى ابوابها ونوافذها حرير وديباج ، وألفى نفسه مضطجعا على أريكـة متحركة ، وقريبا منه رجل أصلع ، كبير الـرأس ، ضخـم الجثة ، وكان هذا الرجل باركفلد بعينه •

كان الوقت ليلا والشموع تضيء الحجـرة بنورهـا الخفاق • وتلفت جونبلان مذهولا ، فرأى سريرا عظيما يعلو

وقال جونبلان : « سأعطي المـال الى أبي أرسوس ، فهو يستحق أضعافه ! » .

قال : « نعما الرأي ، سآمر أحـد رجالي بحمله الـى ارسوس ، وقد أذهب بنفسي ! » .

قال : « كلا ، أنا ذاهب ، فعندي ما يقتضي الاجتماع اليـه ! » .

قال : « هذا متعذر ، فالمسافة لا تقل عن عشرين ميلا . قصرك قريب من قصر الملكة ، وقد حملناك الى هنا في عربة تجرها أربعة جياد ، ولا يعرفك خدم القصر ؛ فمن المحال ان تخرج .. والآن يخلق بنا ان نتكلم ، ففي الحديث فائـدة جمة لك . انت سيد عظيم ، وفي هذه الخزانة المبطنة بالمخمل توجد بزتك الرسمية المعدة لمجلس اللوردات .. فأنت وارث اللقب ، وأحق من الجميع في احتلال مكانك . بعد ساعات تجلس مع أعظم رجالات الدولة .. وغدا تكون من جملـة من يقرر سياسة البلاد الخارجية .. أسمعت ؟ غدا ! » .

قال : « سمعت ، ولم أع ! » .

قال : « والامر منوط بك .. فالنبيل في حل من كـل واجب اذا أراد .. وحري به ان يختار .. ان يفاضل .. له ان ينزل عن الذروة .. انه حقه ــ الاختيار ! » .

ونظر باركفلد الى الضاحك مليا كأنه يستشف فكره ، ثم أتم :

« لهذا توخينا الكتمان ، حتى أعضاء مجلس اللوردات ما برحوا في جهل مطبق •• فلك شقيق من والدك ، ولدته أمه سفاحا ، فقد كانت خليلة أبيك •• وهو الآن يتمتع بما يدره اسمه ، ويحاط بالتقدير •• فان اردت مكث أخوك في مكانه ، ولزمت انت مكانك •• فماذا تقول ؟ هل تستولي او تتخلى ؟ » •

صمت باركفلد منتظرا الجواب ، ولما لم يفز بطائل ، استطرد بصوت أجش : « أنت على مفرق طرق ، فاختر •• انطلق مع الريح المؤاتية ، ولكن ، حذار فالندم لا ينفع بعد البت •• كن حكيما •• انت مت منذ ساعات •• أتفهم ؟ فما قولك ؟ » •

شخص جونبلان الى السقف ، وخفق قلبه •• جعل يفكر ، وما لبث ان صعّد ناظريه في وجه محدثه وقال :

« أنا لورد ! » •

ووقف باركفلد كمن لدغته أفعى •• ثم تألق وجهه الخبيث ببسمة الظفر ، وتناول صندوق المال وخرج •

١٤

وجـع القلـوب

تفطر قلب ارسوس •• رأى ربيبه يساق الـى السجن الرهيب ، فأيقن من زوال السعد ، وضياع جونبلان •

فقفل راجعا وهو يتعثر •• وكانت الشمس في الطفل•• وكان يتلفت ، وكأنه يتوقع ان يستدرك جونبلان •

وتريث على حين غرة ، وحدث نفسه بصوت مسموع: « لو لم يستحق العقاب ، لما تجرع من الصاب ! انـه عنيد تجنى على نفسه ! وما الاحمق الا أنا لاني كلأته بعنايتي •• سأستريح منه ، سأهنأ •• وستتبعه نور •• وهـذا يضيف الى سعادتي ! يا لسعادتي ! » •

وقهقه •• ومزقت القهقهـة صـدره •• واستأنف ثرثرته : « هل كانت تنشئتي منحرفة حتى عـق الحقوق ؟ ويلك يا جونبلان من طائش ! » •

وانبجست الدموع من عينيه ! كان في قلبه وجع !

وعاد يثرثر ليفرج الكروب بالكلام :

« الحكومة الحازمة تلقي القبض على المجرم ! والمجرم يكبو ، وستقتص العدالة منه ! آآويته لاقاسي الالم ؟! » .

كان في قلبه غصة .. الدم تفجر من هذا القلب !

وقهقه قهقهة مجلجلة .

فأن الفضاء من ألمه !

***

دنا ارسوس من المركبة ، والظلام يلف الدنيا بجلبابه. واصطدم بصاحب الفندق ، فصاح : « لماذا تنتظرني ؟ » .

فخاف الرجل وأجاب : « لا تحنق ، ففي داخلي يعتمل الفزع القتال .. طمئني .. هل يعود جونبلان ؟ مـــن يقوم بدور الضاحك ؟ » .

فأجابه ارسوس بصوت أجش : « ومـــن غيري يؤدي الدور يا هذا ؟ » .

وغادره صاعدا الى المركبة ، فنزع اللافتـــة المكتوب عليها ــ انتصار الانسانية ــ وعادر أدراجه .

وسأله الرجل والدهشة مستولية عليه : « لماذا نزعت اللافتة ؟ ألم تأخذ على عاتقك أداء الدور ؟ » .

فضحك أرسوس وأجاب : « لن يكون تمثيل ، سأعود الى خلوتي وعزلتي .. لافلسف وأنطق بالحكمة ! » .

ثم دخل المركبة ، فدنا من نور ، وفي عينيه تترقرق دموع محرقة •• وحدث نفسه وهو يتلدد من العذاب :

« لن يكون تمثيل •• جونبلان زال ، فيا للهول ! ماذا أقول لها ؟ ستموت متى عرفت ! » •

واختلس النظر الى وجه نور ، فهاله النور المتدفق من محياها •• وتململت الفتاة وضحكت ــ ولا جرم ان تفكيرها بحبيبها أضحكها •

وضاق صدر الشيخ ، فقال موجها الحديث الى الغجريتين : « افي آذانكما وقر ؟ استعدا ، فارتفاع الستار وشيك ! » •

وصمت ، ثم هتف : « جونبلان ••• لقد غص المكان •• أسرع ، استعد ، هلم ! » •

وارتفع صوت جونبلان يقول : « نور ، حبيبتي •• ما أروعك ! » •

وذعرت الغجريتان ، وشخصتا الى الباب ، ولكنهما أدركتا ان أرسوس نطق بلسان جونبلان وبصوته ••

وأصمتهما ارسوس باشارة ، ثم قال يخاطب جونبلان: « انظر الى الجمهور ، لقد عيل صبره وضاق صدره ! » •

وهبط ، فكان كأنه جونبلان في خطاه القوية •• والتقى الخادم جو ، فانتحى به جانبا وأمره ان يحدث الضوضاء •

واقترب صاحب الفندق ، فأوصاه ان يقتدي

بخادمه •• ثم عاد الى المركبة وهتف : « هيا يا جونبلان ، أزفت الساعة ! » •

وغنى ارسوس بصوت السكارى •• وصرخ •• فكان صراخه صخب غاضب راض !

اختلطت الاصوات ، وكان صوت جو يمتزج بصوتي ارسوس وصاحب الفندق •• كان الصدى يتجاوب في المكان ليرجع الى أذني نور في لحن ناشز •

ولبس ارسوس جلد الدب وجاء بهومو . وبدا الفصل الأول •• وتقدمت نور وهي تغني أغنيتها الشجية• وبسطت يديها فتحسست جونبلان ــ وكان ارسوس قد تناول اللمة التي يضعها جونبلان على رأسه في ذلك الموقف ، وأدناها من يدي نور •

وسمرت العمياء في مكانها وكأنها صعقت ، وهمست وقد فر اللون من محياها : « أبي ، ماذا أصاب جونبلان ؟ »

انتقع وجه الشيخ ، وشعر بالموت ، وتمناه !

وأنت نور واستتلت بنشيج : « أتخفي الحقيقة ؟ أين ذهب ؟ »

وبكت ، وأتمت وهي تشخص الى السماء : « هل مات ؟ آه ! انتهيت ! نفسي حزينة ! »

كلمات كالسهام اخترقت مهجة ارسوس ، فأثخنت فيها الجراح ، وألجم لسانه والتاث تفكيره •

وسمع وراءه صوتا ، فالتفت . واذ بصاحب الفندق يرفع بيده مشعلا ، ويومىء باليد الاخرى ، فتعجب ارسوس ، ولم يفهم شيئا !

لم يكن يعلم ان زائرين ألما بالمكان وهو منشغل بنور ... فقد طرق رجل غريب باب الفندق ، فتحدث مع نيكولس صاحب الفندق وذهب .. وما عتم زائر آخر ان جاء فتحدث مع نيكولس وذهب .

انضم ارسوس الى نيكولس ، وهمس الثاني : « باء مسعاك بالفشل ، ولم تنطل الحيلة ! »

قال : «هذا هراء .. انها تشك ، ليس الا ! »

قال : « لا أعبأ بشيء .. انما اعلم ان رجلا جاءني ... »

« ومن يك الرجل ؟ »

« غريب لم أفهم لكلامه معنى » وبعد رحيله جاء رجل آخر، كان مدير الملعب الكبير الموجود في أقصى الساحة!..

« ما مراده ؟ »

« عرض صفقة مغرية عليك .. قال ، انه رأى ما جرى اليوم ، ويرغب في شراء العربة ، والعمياء ، والغجريتين ، والذئب .. ويشتريك أنت ايضا ! »

فابتسم ارسوس واجاب : « اكد للرجل اللئيم ان جونبلان لن يبطىء ان يعود ! »

قال : « انظر •• أترى هذه الثياب ؟ ان رجلا آخـر من رجال الحكومة جاء بعد الرجل الاول فسلمنـي اياهـا دون ان ينبس بحرف ! »

ونظـر ارسوس ، وهلعـت نفسه •• هـي ملابس جونبلان •• اذا ••• اذا ••• لقد مات جونبلان !

فواويلتاه ! واويلتاه ! هتف الانسان الكامن في اعماق ارسوس •• ثم استدار وأنشأ يعدو بأقصى سرعة !

ما برح الشيخ يعدو ، حتى وصل المكان الـذي كمن فيه ، ثم اقترب بحذر من السجن ، وهو يبتهل الـى الله أن ينطق الحجارة بالحقيقـة • وصدر رنين متواصل ، فتـريث واصاخ •• فعلم انه صوت النعي ! اذا هناك رجـل مات أو اماتوه • وانتحى جانبا ؛ وكمن في ظل دغل ، وانتظر •

واستمر الناقوس يقرع ، ثم صرّ الباب وفتح ، ليبرز منه مصباح أحمر • وتقدم حامل المصباح ووراءه رجل ، ثم رجلان ، ثم ثلاثة •• وفي أثرهم مشى الضابط الاسود !

واخيرا خرج أربعة آخرون ، حاملين نقالـة الموتـى ، فاتجهوا بها الى المقبرة !

وأوصد الباب وراءهم !

وحزّ الالم في قلبه ـ لقـد انتهـى جونبـلان •• وستنتهي نور من بعده !

فتاه ، وابنه •• لاقى حتفه داخل الجدران الملعونة•• وثيابه هي البرهان الذي لا يدحض !

وصاح بصوت أسمع الصمّ :

« جونبلان •• قتلوك ••• »

وترنح في مكانه •• ثم انطرح على الارض ، واحتضن الحجارة •• وانتحب !

أعول ارسوس ، ذارفا الدمع الهتون !

رثى جونبلان •• ورثى نور •• وتوجع عـلى نفسه اللاغبة !

١٥

اما للحزن من آخر ؟

ما أكثر ما زعم ارسوس انه ذو قلب قدّ من صخر •• ولكنه بكى وذرف الدمع ، لانــه ايقن ان حياته ، وحيــاة جونبلان ونور والذئب انتهت !

فمن اين له ان يعرف الحقيقة ؟

كان صاحب الفندق يغدو ويروح فــي القاعة ، هــو عرضة للهواجس والوساوس •

وتصرمت الساعات وهو يتخبط في افكاره السوداء•• وتبلج الفجر ، وسمع نيكولس ضوضاء ، قرع الباب عــلى أثره فلما نظر من النافذة ، كاد يقضي جزعا •

فقد رأى ثلة من الجند ، يتقدمها رجــلان ، اخدهمــا الضابط الاسود •• أما الآخر فلم يعرف انه باركفلد !

واعاد الضابط قرع الباب ، فهرول المسكين وفتحه •

وصاح الضابط متجهما : « اين ارسوس ؟ »

فأجابه نيكولس مرتعدا : « في المركبة ! »

قال : « ليأت على الفور » •

قال : « ولكنه غادر المكـان كما تذكرت الآن ، ولـم يرجع » •

واقبل أرسوس من بعيد وهو يتعثر بالحجارة ، وكأنه ثمل افقدته الخمر اتزانه !••

شعر نيكولس بعبء يرتفع عـن كاهله ، فصاح بـه يقول : « انت مطلوب يا أرسوس ، عجـل فقد عيـل صبر طالبيك » •

ووقف ارسوس ، ففرك عينيه بيديه ، ونظـر الـى محدثه ، ونظر الى الجماعة ، وخيل اليـه ان حجارة البنـاء تهاوت على رأسه ـ أما اكتفوا ؟ اما اقتنعوا ؟

والتفت اليه الضابط الاسود وأومأ برأسه ، ثم دخل • وتبعه أرسوس صاغرا مستسلما ، وتبعـه أيضـا صاحب الفندق •

ولما استتب بالضابط المقام ، وجلس باركفلد قريبا منه قال يخاطب ارسوس : « قيل ان لديك ذئبا ؟ » •

فقال ارسوس : « عندي ذئب لا كالذئاب ! » •

« ألا تعلم ان القانون يحـرم اقتنـاء الوحـوش الضاريـة ؟ » •

« لا أجهل نصوص القانـون ، ولكـن ذئبـي أليف لطيف ! » •

« كلام هراء •• وانت مهذار ! واعلم انك ان لم تبارح الديار ، اخذت ذئبك وأمرت بقتله ! » •

كان هذا اكثر مما يستطيع ارسوس تحمله ، فكاد يسقط ، ولكنه تجلد وانتظر •

واستطرد الضابط : « يجب ان تطيع فترحل ! » •

فأجابه : « ولكن ••• » •

فقاطعه الضابط غاضبا : « وان أبيت أخذنا الذئب قسرا ، ثم سقناك الى السجن » •

وأجابه ارسوس بعينين دامعتين : « أتعني انه ينبغي علي ان أرحل بالذئب ؟ » •

قال : « هو ذاك •• ودون ابطاء ! » •

قال : « وكيف يتسنى لي ان أرتب اموري بالسرعة التي تفرضها ؟ » •

وهز الضابط رأسه وقال : « عليك ان تأخذ اول سفينة تسافر الليلة » •

فقال ارسوس متوسلا : « بيد ان مركبتي كبيرة ، لا أستطيع ان أصل بها الى النهر في الوقت الملائم » •

قال : « هذا شأنك ، فاذا تأخرت قتلت الذئب ! » •

وهلعت نفس ارسوس ، أما صاحب الفندق فقد ابتسم وهو يقول : « ليتك لم تنس حديثي معك عن الراغب في شراء المركبة » •

فقال ارسوس : « ماذا ؟ أأبيع المركبة ؟ » •

وقال صاحب الفندق موجها الحديث الى الضابط :

« أجل يا سيدي ، هناك من يرغب في شرائها ! » •

وابتسم الضابط ، وأجاب : « ليكن هذا •• ليشترها الرجل ، لانه سيحتاج اليها في نقل أمتعته ! » •

وصمت ، ثم أردف :

« أنتم جميعا راحلون •• انت يا ارسوس الى الخارج ، وهم الى داخل البلاد • فالنبلاء أصحاب الارض اشتكوا من وجودكم ، فصدر الامر بابعادكم ! وهذا السيد يحمل معه الامر النهائي ! » •

وقال أرسوس ، وقد دار في خلده فكر أحيا ميت الامل :

« سمعا وطاعة يا سيدي ، سأغادر البلاد بالسفينة فوجر ، بعد ان أتخلص من مركبتي بالبيع ، بيد ان هناك شخصا عزيزا علي أحب ان أطمئن الى وجوده قربي ، وهو جونبلان كما تعلم » •

وارتفع صوت باركفلد : « من العبث ان تنتظر ، فلن ترى وجهه ، لانه قضى نحبه ! » •

وأصابت الطعنة النجلاء ارسوس في الصميم — لقد مات جونبلان ، فما حاجته الى الانتظار ؟

وأحنى الشيخ رأسه ، وغضون وجهه تفصح عن عذاب

قلبه ، بينما أخذ صاحب الفندق يظهر من الفرح أشده ، ومن الاستبشار اكثره !

ونهض باركفلد ، فوضع كيسا صغيرا على المائدة وهو يقول : « في الكيس عشرة جنيهات ، بعث بها اليك محسن متكتم ! » .

لم يلق ارسوس بالا الى النقود ، وظلت أفكاره تهيم في أودية مظلمة يعشش فيها الموت !

فمن أين له ان يعرف ان الجنيهات العشرة ما هي الا نقطة في بحر ، وان جونبلان او اللورد كلانشار بعث اليه بألفين لا بعشرة ؟!

ران الصمت على الجميع ، ولكن باركفلد قطعه بقوله:

« اخالك أيها الضابط انتهيت من أرسوس ، فأتمم عملك لاني مضطر الى الذهاب ! » .

وامتثل الضابط فدنا من الباب ، وأمر الجند ان يدخلوا ، فصدعوا بالامر !

وانتفض نيكولس ، وتساءل عن معنى دخولهم ، ثم قال للضابط الاسود : « ذرني أطلب اليك ان تأمر رجالك بالذهاب ، فما لك بهم حاجة بعد ان انهيت عملك بالاتفاق ! » .

وابتسم الضابط وقال : « ان مهمتي لم تنته بعد ، فثمة رجل ينبغي ان أسوقه الى السجن » .

فقال نيكولس : « ومن الرجل ؟ » •

قال : « لا أحد سواك ! » •

وحملق نيكولس ، وقد خيل إليه ان صوت الضابط مطرقة تهوي على رأسه وعلى أذنيه ! وقال وهو يلهث من شدة الخوف : « أنا •• أنا •• ولماذا ؟ » •

فقال الضابط : « نعم ، أنت •• لا يوائك هؤلاء •• فهم شذاذ آفاق اكتفت الحكومة باقصائهم ، اما أنت فسنستجوبك ، وسيكون حسابك عسيرا ! » •

وألقى الجنود القبض على نيكولس ، وعلى خادمه جو !

ولم يعلم أحد ما جرى للرجلين ، فالموت في ذلك العصر كان أخف عقوبة تنزل بانسان !

***

النفس البشرية أمارة بالسوء ، والانسان مخلوق ضعيف مهما قوي !

فتح جونبلان عينيه فرأى كونا لم يعهده ، ورأى انه أضحى أعلى مرتبة من البشر •

عاش في دنيا مقفرة ، وها هو ينتقل الى دنيا الاحلام• واستلقى على أريكة مطرفة بالذهب ، ووضع رأسه على طنفة مخملية محشوة بالزغب ، وشرع يرود بعقله آفاق

الفكر ! وتنمرت نفسه ••• « يا ويلهم ، أنــا النبيل ابــن النبيل أحرم من حقي ! » •

كان عظيما في عصمته ، ولكن العظمة تقهقرت أمــام الاغــراء !

وأغبس الظلام ، واختلطت في لبه الافكار المتضاربة ، وتجاذبته التيارات •

وطلع النهار والضحاك في صراع مع المثل العليــا •• ولما لحظ خيوط الشمس المتسربة ، غمر قلبه النور فصاح : « ماذا فعلت ؟ وكيف تركت نور ؟ » •

عجبا ! هل للشمس سحــر ؟ والا فكيف يعود الــى رشده ؟ وتراءى له وهو في نشوته الطارئة ، انه ربح الباقية!

ووثب كالمجنون •• وأنشأ يخاطب نور : « اي قــرة العين ، اصفحي عني ، فأنا لك •• لبيك ، لبيك ! لبيك يــا نور •• لبيك يا أرسوس •• أنا قادم اليكما ! » •

ومشى الى الباب ففتحه وخرج ، وتقــدم في دهليــز كسيت أرضه بالسجاد ، وولج قاعة فسيحة ، ثم انصلت الى دهليز آخر ، فوقف ، وتأمل ، وفكر !

١٦

القـــدر

كانت القصور في ذلك العصر كالشبكة المختلطة ، لا يعرف الغريب كيف يخرج منها •

لم يفت جونبلان اثناء بحثه عن المخرج ما كان يعرض له من الرياش والفراش والزينة •• ولكنه شعــر بالانقباض بعد ان أعيته الحيلة •• خيل اليه ان القصر مهجور ، فقــد خلا من الناس وأطبق عليه السكون !

وتناهى اليه بغتة صوت خافت ، فوقف وأصغى •• ثم اتجه صوب الصوت وفتح بابا اعترض سبيله ، فألفى نفسه يشرف على حجرة رحبة صنعت جدرانها من المرمــر ، وبني في وسطها حوض تتوسطه نافورة •

ورأى في جانب من الحجرة ، صفة مستطيلة تكسوها ملاءة من الحرير ، وشده ••• فقد شاهد غانية رائعة الحسن تجلس في غرفة أخرى فتح بابها على مصراعيه •

امرأة فاتنة عارية ، ألقت على جسدها غلالة رقيقة تزيد من روعة الجسد الشهي !

وتدفق الدم في عروقه ، وخفق قلبه .. فحدق الـى الجسد الرائع ، ونقل طرفه الـى الصدر الكاعب .. ولكنه رأى في الوجه امرأة يعرفها ـ رأى النبيلة العريقة ، الدوقة جوشيانا ! وخفق قلبه بشدة ! انها الانثى التي تاق اليها .. انها صاحبة الرقعة !

انبهرت أنفاسه ، وخيل اليه ان الدنيا تدور وتحلق في أجواء الاماني !

حدثته نفسه بالهرب .. ولكن أنى له ذلـك ، وهـو المكبل بأصفاد الصبابة !

وأغمض عينيه ـ خاف منها ، وأحبها ! خشيها ، وحن الى قربها ! وتراءت له الحياة مصيبة كبرى ! وألقـى فـي النهاية سلاحه ، فهو أضعف من ان يقـاوم .. فالشر ماثـل بأجمل صوره ... وعجب للصدف ... لقـد تمالأت عليه القوى والعناصر ، ولا مندوحة لـه عن الاستمرار في مـا رسم له !

وظلت الحورية في ضجعتها ، لا تشعر بوجوده .

ودفن المسكين رأسه بين راحتيه ، وتأوه !

وكأنها شعرت بوجوده ، ففتحت عينيهـا ، وأبعـدت ساقا عن ساق ، وتثاءبت .. ولم تلبث ان وقفت تتأمل فـي

قوامها ، وتقول في غنج :

« من هناك ؟ اللورد ديفيد ؟ متى جئت يا ديفيد ؟ » •

وتقدمت بدلال الواثقة ، فلما رأته لـم يشب ملامحها أي ارتباك . بل اندفعت نحـوه ، وأحاطت عنقـه بـذراع عاجية ، وأدنت فمها من فمه وهمست : « انت هنا ؟ انت يـا جونبلان ؟ » •

وتحرك في اعماقه شعور نائم •• هي جميلة •• لم ير أجمل منها !

وما لبثت المرأة المليحة ان هتفت : « ما أروعك ! مـا أبشعك ! ما أكثر التناقض فيك ! » •

خاف جونبلان •• أراد البقاء ، وأراد الهـرب ! أراد ان يريق عاطفته على مذبـح الجمال ، وأراد ان يفـر مـن السحر !

وتحفز ليذهب •• ليفر •• ليهرع الى نور ! بيد انهـا أمسكت بيده وهي تقول :

« أمرتني الملكة ان أنتظر في هذا القصر ، فصدعت •• أما أنت ، فماذا جـاء بك ؟ وكيف سمحوا لـك بالدخول ! أتعلم اني أميل الى ما هو خارق للطبيعة ؟ انت تختلف عـن الرجال ؟ لهذا أحببتك ! » •

ونسي جونبلان انه جونبلان ، واستحوذ عليه الغرور •

شعر ان هذه المرأة له •• له هو •• الضاحك المشوه !

ورفع رأسه ، وشمخ بأنفه !

***

قالت الدوقة وهي ترنو اليه بلحظ ذابل :

« متى جئت يا حبيبي ؟ أأعجبك جسدي ؟ أتبادلني هيامي ووجدي ؟ أقرأت رسالتي ، ام تجهل القراءة ؟ لا •• لا •• لا تتكلم •• اجلس ! » •

وجلست ، ورمته بنظرة فاترة مشبعة بالشهوة ، واستتلت :

« بوجودك ، الجاه أضحى سرابا ، والرفعة انحطاطا ! وما أنت الا ما يجب ان تكون الحياة ! لقد سئمت المظاهر الكاذبة الخادعة •• انا عذراء بحثت عن الرجل ، فلما وجدتك ، وجدت الرجل •• هأنذا بين يديك ! »

وارتعدت فرائصه ، ما ابدع الجسد ! وفتح فاه ••• ولكنها سبقته فقالت : « ما أروعك ايها الفطري ! » •

وهبت واقفة واستطردت : « انت لي •• انت جزء مكمل •• وأنا النصف الذي وجد تتمته ! سأهب اليك روحي وجسدي ••• وليقولوا ــ ماذا دهاها حتى سقطت الى الدرك ؟ » •

وانبهر نفسها ، وتضرج محياها ، واهتز ردفاها ! وفقد

جونبلان وعيه • ودنت منه الحسناء فقبلته ، ثــم أدنتــه والتصقت به !

شعر ان في فيها اكسير الحياة •• وان رضابها هــو الاكسير !

وتراجعت الملتهبة صبابة حينما طــرق سمعهــا صوت الباب يقرع • وبرز من الجدار حاملة خشبية فوقها مظروف، فتناولته وفضته ، فاذا فيه كتابان •• فقدحت عيناها بالشرر وقالت :

« قبحا لك من ملكة ! ماذا تطلبين ؟ » •

واستلقت عــلى الاريكة ، وناولت جونبلان احــدى الرسالتين لكي يقرأها •

وامتثل جونبلان وقرأ :

« عزيزتي ــ ازدوك بصورة عن اعتراف انسان مذنب• اللورد كلانشار مات عن ابن ، وابنه مهرج يدعى جونبلان ! فرغبة مني في اعادة الامر الى نصابــــه ، قررت ان ارجــع للرجل المغبون حقوقه المغتصبة •• الا اني أتمنى ان تحتفظي بالاموال ، وما عليك الا ان تستبدلي اللورد ديفيد باللورد كلانشار •• وقد سيرنا اللورد كلانشار الى القصر ، فالرجاء ان تتخذا الاهبة وتمهدا للزواج ! » •

اختطفت الرقعة من يده ، ثم تناولت الكتاب الثانــي فاذا به اعتراف رجال المركب !

وهزت رأسها وهي تقول : « أمــر ملكة •• لا يسعنا

الا الامتثال ! » •

ورفعت بعد قليل رأسها شمما وأردفت بزراية :

« والآن اذهب من هنا ! » •

لم يحرك جونبلان ساكنا •• واستتلت : « أنت زوجي المقبل ، فاذهب ! غادر الحجرة ! » •

ولكن جونبلان مكث واقفا في مكانه •• فقالت بصوت متهدج : « انت زوجي •• فاخرج ! فلي عاشق ؛ وعشيقي هو حبيبي •• اخرج أيها الزوج ، وليأت العاشق !»

ولما رأته لا يبرح ، نهضت وقالت غاضبة : « أنا اذهب أيها الحقير ! » •

وخرجت غادة كتب لها ان تستبدل رجلا جميلا برجل بشع !

وبقي هو •• بقي لا ليفكر ، بل ليحملق ، وكأن في رأسه فراغا !

١٧

النسدان

مضت الدقائق وجونبلان مشلول الارادة ، وسمع فجأة صوت خطى ، فاستدار ليرى رجلا أنيق المظهر يتقلد بسيف معقوف .

انتفض واقفا كأنه أصيب بمس ــ فهو يعرف الرجل ، انه توم جيم جاك ! .

ودنا القادم منه وسأله مقطبا : « كيف جئت ؟ ماذا تصنع هنا ؟ » .

وأجابه جونبلان : « وانت .. أيحق لك غشيان القصر ؟ » .

« بالله عليك .. من فتح لك الابواب ؟ » .

« قل انت أولا ، ماذا أتى بك ؟ » .

« أفي حلم أنا ؟ من اين لك هذا اللباس ؟ » .

« لباسك فخم ، فمن اين هو ؟ » .

« أتجرؤ على طرح الاسئلة ؟ » .

« وكيف تتجاسر أنت ؟ » .

« أنا لست توم جيم جاك » .

« وانا اسمي غير جونبلان .. وانت غريب هنا ! » .

« أنا غريب ؟ قبحك الله يا جونبلان » .

« اصمت أيها البحار المكثار ! » .

« كفاك لغوا ! سأؤدبك .. فمعي لمثلك عصا تعرف طريقها اليك ! » .

فثار جونبلان ، وأجاب وهو يتحفز : « لن أغضي عن قحتك أيها البحار ، ستندم ، ولات ندامة ! » .

« لن أقاتلك بالسيف ! » .

« كلا .. بل بالسيف ! » .

« أي جونبلان ، السيف لم يصنع للوعاح أمثالك ، فهو سلاح النبلاء ، وانت حقير .. أما انا فأمير البحار ! » .

« انا ذو حسب ونسب ، وانتمي الى مجلس اللوردات » .

وقهقه الرجل وقال : « لعلك ملك .. ولا عجب ، فالمهرج يطيب له المجون » .

« متى سألت علمت » .

« أف لك .. انا اللورد ديفيد .. أفهمت ؟ » .

« وأنا اللورد كلانشار .. أفهمت ؟ » .

وقهقه اللورد ديفيد مرة ثانية وهتف : « لم أعرفك تجيد التمثيل الى هذا الحد أيها الضحاك ، ولهذا اصفح

عنك . فأنا عاشق . وأنت عاشق كما يبدو •• وعشيقتنا واحدة ! » •

وتنحنح رجل في مكان خفي •• والتفت الندان فشاهدا باركفلد يتقدم نحوهما •

لم يلتفت الجاسوس الى اللورد ديفيد ، بل انحنى باحترام امام جونبلان وقال : « سيدي ، انا مدير الاستقبال في البلاط ، وقد أمرتني جلالتها باستدعائك الى قاعة العرش ! » •

وذهب جونبلان ، فاستقبلته الملكة ، وفي اليوم نفسه ، اخترقت الشوارع عربتان ، جلس في الاولى مدير المراسيم ، وفي الثانية رجل يغطي نصف وجهه بقبعة كبير ، ولم يكن سوى جونبلان • وكان منطلقا الى اجتماع مجلس اللوردات ، ولما أشرفت العربة على العاصمة ، تبعها فرسان يلبسون ثيابا موشاة ، أيقن جونبلان انهم من حرس الملكة•

وقفت العربة اخيرا امام البناء الكبير، وترجل جونبلان فأهرع اليه رجل كهل ، انحنى باحترام وافسح له طريق الدخول وما كاد يتوسط القاعة حتى وقف الرئيس وخاطبه قائلا:

« أيها اللورد كلانشار ، اجلس في مكانك ! » •

وجلس جونبلان ، وقال الرئيس : « ارحب بمقدمك ، وابتهل الى الله ان يسدد خطاك ! » •

كان مهرجا وغدا نبيلا .. فتفتت احساسه الى مشاعر متناقضة متنافرة ... فهو يصبو الى نور وارسوس ، وفي الوقت نفسه ينظر الى بعيد ، ويرى ما دان له من المجد !

وعلا اللغو .. كان الواحد من المجتمعين يقول لجاره همسا : « انه كله فم ! » .

وكان الجار يجيب : « انه لا يفتأ يضحك ! » .

حاولوا ان يتبينوا ملامح جونبلان ، ولكنهم لم يستطيعوا !

ودخل ممثلو الملكة ، فخف الرئيس الى استقبالهم ، ووقف الاعضاء .

وقال الرئيس : « ايها النبلاء ، باسم الملكة افتتح الجلسة » .

***

مجلس اللوردات مسرح يمثل نبلاء انكلترا على خشبته قصة هزلية .. فبعد المراسيم ، ينهض الرئيس ويعلن بدء العمل .

وقد فعل الرئيس ذلك ، ثم طالب بمضاعفة مخصصات الامير جورج زوج الملكة . ولم يعارض احد . ولكن عندما هتف أمين المجلس باسم اللورد كلانشار ، تريث جونبلان ، ثم نهض واقفا .

وفغر الجميع أفواههم ، وتساءلوا عما اذا كان قردا او انسانا .

وحاول جونبلان ان يتكلم ، ولكن أحدهم قال : « من انت يا هذا ؟ من ؟ » .

وساد الصمت ، وقال جونبلان بصوت متهدج : « أتسألني من أنا ؟ أنا عنوان الشقاء .. انا المأساة ! وأنتم أيها السادة تعيشون في منأى عن الشعب .. كل شيء لكم، وقد أنسيتم ان هناك شعبا يحيا كالسائمة ! » .

وارتفعت الاصوات تطالب باسكات المجنون .. الا ان صوتا ثاقبا تردد صداه في القاعة يطلب اليه ان يستمر ، وتابع جونبلان :

« لا تبصرون الخطر ، ولا ترون ما حولكم ... ان الجهل منتشر ، وهناك بصيص لا يبرح يقوى ، وسيصبح شعلة ساطعة ، بل نارا محرقة .. انه وهج مستمد من الشمس .. ولا يسعكم ان تطفئوا الوهج متى اضطرم وتأجج .. انها الشمس .. والحق هو مثل الشمس !

« أنا ، من أنا ؟ صوت من عالم المجهول يهيب بكم ان تفتحوا قلوبكم للشعب ! خلقت مع الشقاء ، وعشت في عوز .. أنا أتكلم الآن ، ولكني أحفر في ماء ، ولا يجد صوتي الا الصدى !

« شاء القدر ان يحولني من مهرج الى لورد ، لقد

خلبني اللقب منذ ساعة ، الا ان قلبي انتفض متمردا على نفسي ، فأنطق لساني .

« كانت أسناني في الشتاء تصطك ، وكان رأسي في الصيف يتصدع .. كنت أجوع وأتعرض للمهانة .. ولكني كنت احتمل المآسي بصبر وايمان .

« أنا أنطق باسم الملايين .. أرواحهم البائسة فوضتني بالكلام .. فأنتم يا من أكلتم حتى اتخمتم ، أنتم لا تسمعون ولا تبصرون .. أنتم جبناء تتهربون من الحقيقة ! » .

دوت القاعة بالهتاف والضحك ، وشرع اللوردات يتندرون ، ويقولون :

« يا للمهرج ! لقد أضحكنا وأبكانا ! فليستمر ، فنحن أحوج ما نكون الى مثل هذا اللهو ! » .

وصاح جونبلان : « اصمتوا أيها النبلاء ! أنتم أقوياء، فانفخوا القوة في أرواح الضعفاء ، بذلك تنقذون الملايين ! ثم أليس من العار ان تلجأ سيدة البحر الى النكلة ؟ أرأى أحد منكم رجلا يعلق من قدميه ؟ او يستخرج بؤبؤة عينه من عينه ؟ أتذوقتم طعم الفحم في المناجم ؟ » .

وضحكوا مليا وهزأوا وتهكموا ، وانفجر الضحاك بصوت كأنه صوت النقمة :

« أف لكم ! أنا نبيل مثلكم ، ولكني أركل هذه الصفة ! ايها الزائفون ، ستنهارون وتتهاوون ... ستبزع

الشمس عن قريب ! » •

وانبرى أحدهم يقول : « أمن أجل هذا جئت ؟ » •

فأجابه جونبلان : « أنا من الشعب •• أنا الضاحك الباكي •• انظروا الى وجهي •• لقد فعلتم بغيري مثل ما فعلتم بي ، فأنتم أقوياء ونحن ضعفاء •• ولكن الساعة الرهيبة لا محالة آتية ! » •

وعيل صبر الرئيس ، فأعلن انتهاء الجلسة ، وغادر النبلاء القاعة مخلفين جونبلان وراءهم • وعندما خلا المكان خرج وهو مطأطيء الرأس ، الا انه في الطريق رفع هذا الرأس وتمتم بصوت رقيق :

« أيتها الحبيبة ••• اني قادم ! » •

***

اتجه جونبلان الى الفندق ، كان يرتدي ثياب لورد من السادة ، فادهش منظره رجال الحرس ، ولكنهم لم يجسروا على اعتراض سبيله •

لم يكن قلبه ينبض فقط ، بل كان يضرب كالمطرقة ، ولم تكن نفسه تتعجل الزمان فحسب ، بل تطير لتسبقه •

واقترب من الفندق ، فلم يبصر شيئا غير الظلام •• فأين الضوء ؟ وطرق الباب فلم يستجب أحد ••

طارت نفسه شعاعا ، فصاح ينادي صاحب الفندق ••

ثم وثب كالمجنون فلم يجد المركبة •• وأجال طرفه فيما يكتنفه ، وفغر فاه ••• لقد امحى كل أثر للمركبة •• ولم يعد هناك أي ملعب من الملاعب التي تركها على خير حال منذ يومين •

وجعل يضرب على غير هدى وهو يعول ، وما برح يندفع من مكان الى مكان ، حتى قادته خطاه الى النهر •

لقد تخلى عن كل شيء لاجل ارسوس ونور ، وها هما يتلاشيان •• فماذا أصابهما ؟

وتأوه وهو يرى الشقاء يفتح فاه لابتلاعه •• وقهقه وزمجر •• وصاح بصوت مجنون أودت الكارثة بعقله :

« هربت حفاظا على انسانيتي ، وتفضيلا لحبيبة قلبي نور ••• ولكن الدنيا ولت الادبار ••• واختفى الجميع •• حتى هومو الذئب ! » •

وصاح به شيطانه : « أنت معتوه ، والا لما تخليت عن النعمة التي أتتك صاغرة ! » •

ولكنه سمع صوتا آخر يقول : « لا تأسف على ما فات ، فالفناء هو النهاية الطبيعية ، وليس هناك حقيقة واحدة خلا الطبيعة ••• أما الدنيا ، فهي مقبرة لنا •• بؤرة لأجسادنا ! » •

وشخص الى المياه المنسابة ، وضغط على الحديد ، وتحفز ليقفز الى الماء ، ولكنه شعر بكائن يتمسح به ،

وبلسان يلعق يده .. فقف شعر رأسه ... ثــم تذكــر .
فلمعت عيناه ... ورأى الذئب ... رأى هومو !

شعر كأنه غريق انتشل ، فانبعث الامــل في قلبــه .
وصاح بغبطة وحبور !

« هومو ... » .

قال : « ان الله قادر على كل شيء •• فتجلدي •• ان رحمة الله سابغة ! » •

قالت : « أبي ! أخـــذوا جونبلان •• انتزعـوه •• أماتوه ! كنت قبل ذهابه أرى بعيني المكفوفتين كل شيء •• كنت أرى الشمس والقمر والنـور والظـــلام ! كنت أراه وأراك ••• أما الآن •• الآن ! » •

فهتف الشيخ بصوت يلين الجماد : « أبتهـل اليك ان تصمتي •• صوني نفسك من أجلي •• أنا أبوك ! » •

وحملقت نور بعينيهـا •• ودهش أرسوس ، وتساءل بذعر : « أماتت نور ؟ هل أسلمت روحها الطاهرة لتلحـق بجونبلان ؟ » •

وارتفع صوتها ، فأيقن من أنها تعاني سكرات الموت •• قالت : « حبيبي جونبلان ••• أنـا عمياء ، ولكنـي أراك باحساسي ! انت تقف هنا ، هنا قريبـا مني ! أرى وجهك ، بل قلبك ، بل طيبتك ! وأسمع صوتك دون ان ينطـق بـه لسانك ! جونبلان ذرني ألمس وجهك الجميل ! » •

وتأوه أرسوس وزفر ، ثم رفع رأسه ، وأجال طرفه ، وندت من صدره صيحة استغراب ـ أهو الآخـر مريض ؟ أهذا الماثل أمامه جونبلان ؟ أم ان طيفه تجسم فـي صورة انسان ؟ لا ، لا •• انه جونبلان ! •

واندفع الطيف فاحتضن حبيبته وقبلها ، وهو يقـول

أنائمة أنت ، أم منصرفة عن الدنيا ؟ أأصابك سوء ؟ أحاقت بك المنية ؟ كلا •• كلا •• فجسدك دافىء ، وقلبك خفاق ! »

وتنبه أرسوس الى الذئب فقال برفق ومحبة : « يـا هومو العزيز ، خلت أنك أنت الآخر ذهبت •• قريبا نمخـر العباب ، فننسى المصاب ، وتبرأ نور من وعكتها •• ها هي السفينة ترفع مراسيها ، فالوداع أيهـا الشاطىء •• الوداع أيها الثرى الذي ضممت اليك أحب انسان ! » •

وتنفس الصعداء ، واستطرد : « مـــا بـــال جسدك ينتفض كعصفور بلله القطر يا نور ؟ رباه هل أسأنا لاحـد حتى يطبق علينا الشقاء ؟ ان السفينة تبتعد عـــن المدينـة الموبوءة الظالمة ، ومع ذلك لا أملك من أمري الا ان أودعها بكلمة طيبة ، لاني تركت فيها أعز انسان ! » •

وداخل روع الشيخ الملتاع أنه يسمع ركـزا ، فحملق في وجه نور ، فاذا بالشفتين تختلجان ، وسمع بعد هنيهـة صوتها الواني يتمتم ويقول :

« أبتاه ! ألم يعد الي حبيبي ؟ هـل ذهب دوني الـى عالم آخر ؟ أنا أحبه ، فأين هو ؟ » •

وقال أرسوس ونياط قلبه تتقطع : « ناشدتك الله ان لا تعذبي نفسك وتعذبي شيخا هدمته الرزيئة ! » •

قالت : « أنا أطلب حقا •• أطلب انصافـا •• مـاذا اقترفت حتى يتألب علي البغي والجور والعدوان ؟ » •

قال : « ان الله قادر على كل شيء .. فتجلدي .. ان رحمة الله سابغة ! » .

قالت : « أبي ! أخـــذوا جونبلان .. انتزعـوه .. أماتوه ! كنت قبل ذهابه أرى بعيني المكفوفتين كل شيء .. كنت أرى الشمس والقمر والنــور والظـــلام ! كنت أراه وأراك ... أما الآن .. الآن ! » .

فهتف الشيخ بصوت يلين الجماد : « أبتهــل اليك ان تصمتي .. صوني نفسك من أجلي .. أنا أبوك ! » .

وحملقت نور بعينيهــا .. ودهش أرسوس ، وتساءل بذعر : « أماتت نور ؟ هل أسلمت روحها الطاهرة لتلحـق بجونبلان ؟ » .

وارتفع صوتها ، فأيقن من أنها تعاني سكرات الموت.. قالت : « حبيبي جونبلان ... أنــا عمياء ، ولكنــي أراك باحساسي ! انت تقف هنا ، هنا قريبــا مني ! أرى وجهك ، بل قلبك ، بل طيبتك ! وأسمع صوتك دون ان ينطـق بـه لسانك ! جونبلان ذرني ألمس وجهك الجميل ! » .

وتأوه أرسوس وزفر ، ثم رفع رأسه ، وأجال طرفه ، وندت من صدره صيحة استغراب ـ أهو الآخـر مريض ؟ أهذا الماثل أمامه جونبلان ؟ أم ان طيفه تجسم فـي صورة انسان ؟ لا ، لا .. انه جونبلان ! .

واندفع الطيف فاحتضن حبيبته وقبلها ، وهو يقــول

بصوت يسيل رقة وعذوبة :

« أيتها الحبيبة ! لقد رآني قلبك قبل عينيك •• ان عينيك مكفوفتان ، ولكن الله أضفى عليك من لدنه النور السماوي ، فأصبحت أكثر الناس ابصارا ! » •

ونشجت نور ، وكفكف جونبلان مدامعها ، وأعانها على الجلوس •• ونظر الاثنان ـ جونبلان بعينيه ونور باحساسها ـ الى ارسوس ، فشاهدا الشيخ يحتضن الذئب ، وشاهدا الحيوان العجيب يذرف الدمع !

واقترب الاربعة من بعضهم البعض ، حتى امتزجت عبراتهم كما امتزجت حياتهم منذ سنين ، وكما امتزجت ثانية بعد فراق وشقاء !

***

في ليلة دامسة الجلباب ، عثر طفل شريد عـلى طفلـة
سلبها البرد نور عينيها •
في تلك الليلة المقرورة ، رسم القدر خطين لحياتين •
في تلك الليلة ، كتب للخطين ان يلتقيا •
وقد التقيا ، وامتزجا ، واندمجا •
وعاش جونبلان مع نور في كنف ارسوس •
عاشا ما شاء لهما الله ان يعيشا •
عاشا في جنة ، ولما ماتا ، ارتفعت روحاهما الى جنة !

قصص الملايين

مسلسل روائي يصدر تباعا .. يضم اجمل الروايات واغناها في الحوادث والمفاجآت والمغامرات ..

صدر منها :

١ ــ أهوال الجاسوسية	أنتوني ناتنغ
٢ ــ الانتقام الاسود	فرنون سوليفان
٣ ــ أنا القاضي	ميكي سبيلين
٤ ــ يوميات مجنون	نيقولاي غوغول
٥ ــ سجين زندا	أنطوني هوب
٦ ــ الزلة الكبرى	سومرست موم
٧ ــ شهوة امرأة	سومرست موم
٨ ــ الوحش	اميل زولا
٩ ــ الضاحك الباكي	فكتور هيجو
١٠ ــ تيريز راكان	اميل زولا
١١ ــ سأبكي غدا	ليليان روث
١٢ ــ الدكتور جيكل والمستر هايد	روبرت ستيفنسون

قصص الملايين

ضحك حتى عافه الضحك
ضحك فأضحك ، ولكنه بكى
وكان بكاؤه ضحكاً متصلاً
صبي شوهوه ومزقوا فاه
شوهوه حتى أضحكوه
ولم يتحسس لبؤسه سوى ثلاثة
شيخ .. وعمياء .. وذئب ..

الثمن ٣٠٠ ق.ل.